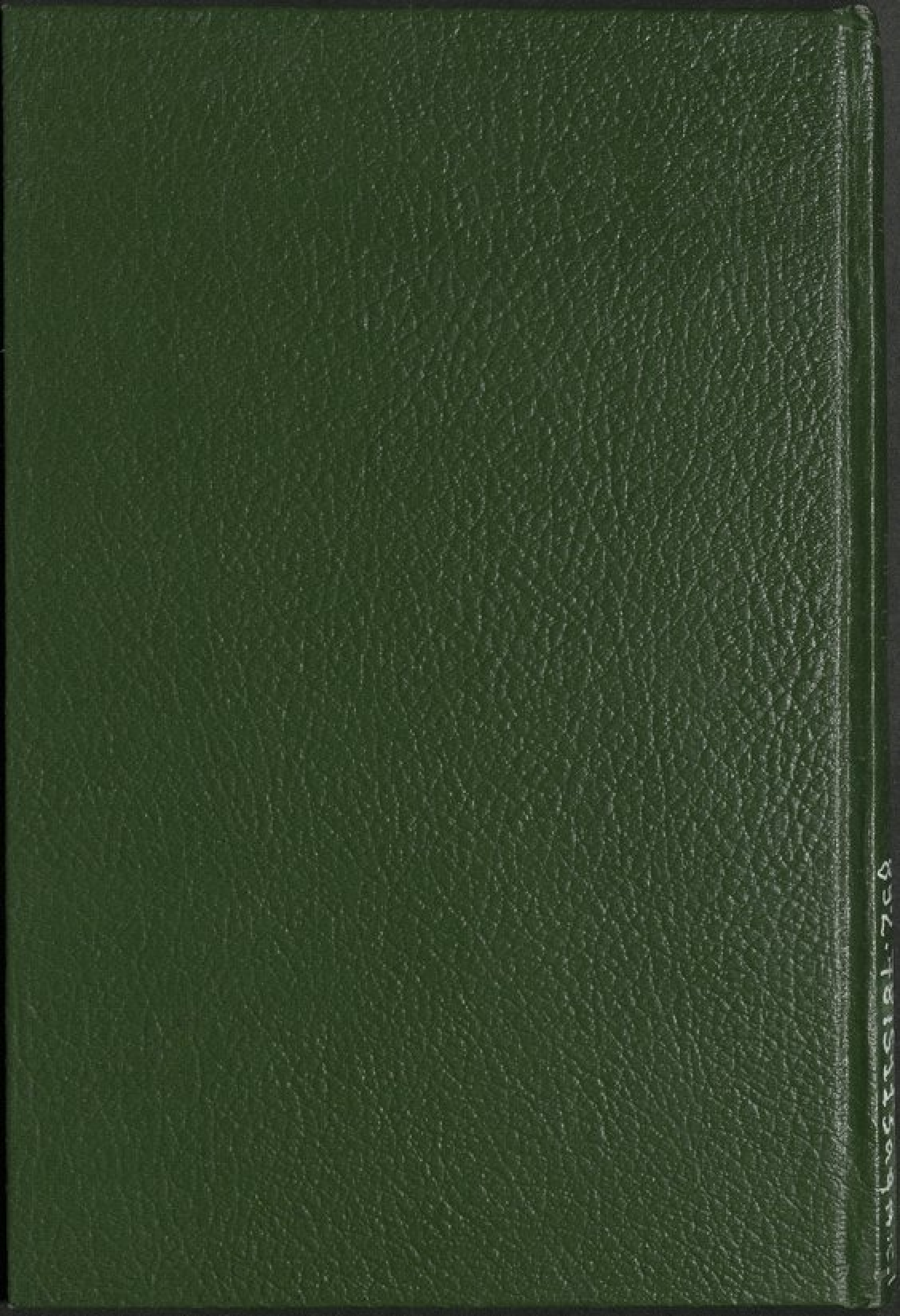


اقوال واحاديث

نقد ، علم ، ادب ، تاريخ وفلسفة

بقلم

عيسى ميخائيل سابا

استاذ في الكلية العلمانية الفرنسية

«أنا افكر اذن انا موجود»
الفكر ابن الانسان ، والانسان
ابن الدهر ، والدهر معلم ومهذب

يطلب من مؤلفه

وثمن النسخة ثلاثون غرشاً لبنانياً سوريا

بيروت : مطبعة الوفاء : سنة ١٩٣٢

اهداء الكتاب

اليك يا سيدي الوالد ، يا من شقيت وجاهدت في الحياة من اجل تعليمي وتهذيبي ، الى روحك الطاهرة المرفرفة حرّة طلقة في عالم الاجواء الى حبك وحنانك الى بقية بعضك المحللة في التراب النابت فيها العشب والزهر اقدّم كتابي هذا اجلالاً ومبرّة

ولدك

عيسى

الرجل الحائر

وقف الحائر فوق منبسط الغبراء ، وقد دار حول الشمس ملايين السنين ولما يزل ، يتسقط اخبار الامم مستقرئاً صفحات الوجود على وضح النهار وعلى ضوء القمر ليلا ، فما يزداد الا حيرة واوهاماً وما يشق له طريقاً يأنس به ليصل الى ضالته المنشودة حتى نراه وقد رجع القهقرى آسفاً على وقت اضاعه في الكد والنصب مفتشاً منقباً عن سرّ عميق في قلب هذا الكون المملوء بعجائب هي فوق مستطاع ادراكه

وقف يحدق في الاجواء تارة وفي الارض اخرى وفكره الدائر مع الكواكب يهمس في ذاته خبراً من اخبار الاجيال مبهما لا يقوى على كشف استاره المتلبدة ستراً فوق ستر محوك بيد الاوهام جيلا بعد جيل ، فينظر الى نفسه كما تنظر الفصول الى الحقل باكية ، ناحبة ، باسمة ، راقصة ذابلة

هوذا الحائر وقد اشرف على اعمال الدهر فما يصنع ؟ وقد آن له ان يستطلع اخبار من تقدمه ليبني حكمه على جملة ما استقرأه فاذا هو بلسان بوذا معلم الهنود يقول : الوجود الحسي ضلال وغرور ، والرغبة الناشئة من هذا الوجود تنتج الالم ، وما يتلاشى غرور والم الوجود المادي الا « بنرفانا » اي بانعدام الوجود المتحرك في قلب الوجود الثابت ، وللوصول الى هذا الانعدام الحسي يجب انكار الذات وملاشاة كل رغبة

تفكر الحائر ملياً بهذا وصفق بيده فرحاً مسروراً مردداً قد ظفرت ،

قد ظفرت بضالتي واذا هو يصطدم « بزوراستر » الفارسي القائل بمبدأي الخير والشر ، والطاهر القدوس ، الابن الكلمة كان موجوداً قبل السماء ، قبل اليابسة والهواء ، قبل القطعان والاشجار وقبل النور والنار . وارموزد اله الخير واهريمان اله الشر يتقاسمان القوة والقدرة

نظر وفي قلبه نيران تضطرم شكا وحيرة ، تهمس ذاته في ذاته لِمَ وجد الخير وبازائه الشر ؟ اليظهر هذا حسن الاول ؟ فتتعذب ذاتي بذاتها ، عذاب الحامل وقت المخاض ، لِمَ لم يكتفِ الالهان بشخصيهما يسرحان ويمرحان فيما اوجدا ؟ و يكفيان الناس شر الحيرة والعذاب المستطير

ضرب كشحاً وتوارى عن قول « زوراستر » كما تتوارى الشمس وراء الشفق المنعكس عنها وراح يردد في اعماق نفسه لم اظفر ، لم اظفر بشيء ، تمشت الحيرة في ثنايا دماغه كما تتمشى مياه الساقية المطمئنة في منحدر الوادي وهام على وجهه يتخبط في دياجير الاجيال المظلمة متسائلا من انا ؟ ومن اين انا ؟ والى اين المصير ؟ واذا هو يسمع بلسان كونفوشيوس : المعرفة الحقيقية هي ان يعرف الانسان انه يعلم ما يعلمه وانه يجهل ما يجهله ، واهم ما تجب معرفته هو الواجب ، وما الشريعة الانسانية التي يجب العمل بها الا محيط لا شاطيء لها وهي المنتجة للكائنات والمبقية عليها ، اللامسة السماء بارتفاعها ، وما هي الا شريعة العقل وعلينا تطبيق اعمالها على مبادئها القويمة ، لانها الشريعة الادبية وهي كمال الذات البشرية ، فالكمال هو القوة المنتجة للسماء والارض ، وهو مبدأ وغاية كل موجود و بغير الكمال ما كان للكائنات وجود

فقال اذن انا بعض الكمال ، فعلي ان اعرف من هو هذا الكمال ؟

ولِمَ انبثقت عنه كما انبثقت هذه الكائنات ؟ فازدادت شكوكه وذهب ايمانه وما برح يفتش و يبحث ولكن على غير جدوى فقبع في مكانه كما تقبع الثكلى فوق ضريح ولدها تمزقها الاحزان وتشجيها اغاريد الطيور ، واذا بما ذهب اليه طاليس الملطي يترامى اليه من ان الماء مصدر الاشياء كلها ، منه تكونت الموجودات واليه تعود

فقال لقد عرفت من انا ومن اين انا والى اين اعود ؟ وما كاد يطمئن الى راحته ويهدأ حتى قذف بمذهب انكسيمندر القائل :ان المادة التي تكونت منها الموجودات هي العما « chaos » اي شيء غامض غير محدود ولا معين ، تختلط فيه جميع الاشياء فلا هو هذا ولا هو ذاك ، عنه تصدر واليه تعود ، وذلك بحركة ابدية تدفعها يد القدرة فالسموات والعالم وما بينهما نشأت من هذا الشيء اللامحدود تبعاً لبعض قوانين ثابتة ، وان الحيوان كان مائياً فلما ترك في الجفاف تطبع بحالته الجديدة واخذ يستحيل من حالة الى اخرى حتى ثبت على شكله الحاضر (١)

فما ازداد الحائر الا غموضاً فكانه الكرة تتلاعب به ايد مجهولة تقذف به كيف وانَّى شاءت ، والشك ينمو في عمق اعماق نفسه متألمًا

وقف فوق رابية يتنفس الصعداء و يستريح من عناء ما حمل وما يحمل ونسيم الغاب يتمسح بكيانه تمسح الظل في اليابسة ، واذا نور يتسرب اليه بصوت انكسيمين قائلا :الا اعلم ايها الحائر الضلول ، ان الله الذي اوجد

---

(١) هذا هو مذهب النشوء والارتقاء وقد قال به الفيلسوف المومي اليه ٦١١ — ٥٣٦ ق٠ م

الاشياء بالتكاثف تارة وبالتمدد اخرى هو الهواء ،هو الهواء ، ونتاجه الماء والارض والنور ومن تلك العناصر تكونت الكائنات باسرها وقد ايد قوله تلميذه ديوجنيس الايوني (١)

فردد في سره ، قد تكون الحقيقة فلأنم مرتاح البال خلياً واكفى مؤونة البحث، واذا بهرقليطس يسر في اذنه لاتصدق ما قيل لك فتعال اطلعك على القول الحق، فاعلم ان العنصر الذي تكونت منه الاشياء هو النار ، النار لانها رمز الحركة الدائمة ، وجوهر الاشياء لا يثبت على حالة واحدة ، الكل يمر فينقضي ولا يبقى شيء ، والانسان لا يستحم مرتين في النهر عينه لان امواجه متعاقبة بغير انقطاع فسلم معي بوجود حكمة فائقة لا تناسب بينها وبين حكمة اعقل انسان في العالم ، وهي تظهر في الكون بما تدبره من حياتنا الفردية والاجتماعية واعظم خير في هذه الحياة هو صدق العزيمة وحسن الخلق

فتحامل الحائر على نفسه وانتصب وقال الهي ، الهي زدني من نارك نوراً وافتح علي عقلي واهدني بهديك واكشف لي ذاتك بذاتك فما انا جان لتحجب انوارك عني ، علمني مشيئتك التي انت تريدها لا مشيئتي انا ، انك خلقتني واوجدتني في الحياة احس وافكر ، فلِمَ تحجب عني ذاتك القدسية ؟ لقد ضللت واسقط في يدي فما انا صانع ؟

صلّى صلاته هذه ومشى يتوكأ على عصاه واذا به يصطدم بكزينوفان الآخذ عن فيثاغورس الوحدة فخاطبه كانه وحي السماء ارسل اليه : اعلم ان الله واحد ازلي ومن الكفر والالحاد الاعتقاد بولادة الالهة كما قرأت في الوثنيات

(١) اخذ هيكل بهذا في اوائل الجيل التاسع عشر بعد المسيح

القديمة لان كل ما يولد مصيره للهلاك والله سرمدي باق بقاء الابد

فصفق كما يصفق النسر بجناحيه وخاطب الله بروحه قائلا ، الهي انك كشفت لي سراً لا يزال فيه غموض فهبني رب من لدنك وحياً ينير ظلمة قلبي ، واذا بزينون الاليائي يقول له ان المادة والزمن والحركة ظواهر وهذه ليس لها وجود ذاتي بل هي بنات ادراكنا الحسي وما المكان الا تصور والزمان مجرد اصطلاح والكائن قبل الوجود فوق الجميع ، واذا بصوت الضمير يخاطبه بلسان سقراط : ان الله واحد ازلي مالىء الكون وهو في العالم كوجود النفس البشرية في الجسم ووجوده ثابت بدليل ان لكل معلول علة فلكل فعل فاعل ولكل فاعل غاية ، والسبب الذي خلق الانسان هو سبب عاقل وكل ما في العالم خلق على احسن تقويم لانه عمل قوة تدرك تمام الادراك بعقل كامل وعناية عظيمة تنظم الكون طبقاً لشرع العقل فتخضع الخاص للعام وتتعاون الاجزاء في العمل لمصلحة المجموع والنفس هي جزء من ذاك العقل الكامل وهي خالدة خلوده

فما سمع بذلك حتى رمى ببصره الى الامام كما ترمي الشمس خيوط نورها على ما انبثق منها يستكشف ويبحث وما زال يدأب في عمله والشك ملء اهابه يجلو الحقيقة ليظهرها بيضاء ناصعة كالثلج ، فيرمي بها الاجيال المقبلة ويحمل مشعاله الى اقاصي الاكوان مقدماً صلاة وقرباناً على مذابح الاقوام الغابرين لخالق الازمان المسرعة على ذرات النور الى حيث المبدأ والمعاد

الفضيلة وتطورها

ايها المفكر الباحث في بطون تواريخ الاجيال المتطاولة في القدم والساعي بعقلك الى ما خلفه الغابر للحاضر ، قف قليلا على انقاض الماضي وابحث به ملياً تجد ما ليس تقره اليوم ، وما تقره انت وتراه فضيلة لن يقره ابناء الآتي ، لتبدل الافكار وتطور الانسان الذي يثبت الان ما ينقضه الغد وينظر اليه نظرة هزء وسخرية يضحك ملء شدقيه كما نضحك نحن على من تقدمنا من ابناء العصور المندرجة وراء الماضي السحيق

لقد كان للاقدمين عادات يعدونها فضيلة وتقربا من القوة الازلية التى حارت بها افكار فلاسفة اليونان و كهنة الهند والصين ومصر ومفكرو العصر المنصرم ولما نزل بين موءمن ومشكك

تصور يا قارئي انك قبل الميلاد المسيحي بسبع مئة سنة ايام الفينيقيين وانك امام الكاهن الاعظم وعلى يده طفل يقدمه والده ذبيحة مقدسة للاله « مولك » ذلك التمثال النحاسي المجوف الباسط يديه لاقتبال الطفل البكر ومن تحت ذلك الصنم نيران تتقد وحوله زمرة الكهنة بطبولهم وترانيمهم وشعوذاتهم يضيعون صراخ البريء والشعب وراءهم يقيم الصلاة ويقدم تضرعاته تقربا واسترحاماً ، فلو كنت انت او انا آنذاك لمشينا مع المشاة وصلينا مع المصلين وامتدحنا الضحية وقلنا هذه فضيلة او لو كنت في عصر يفتاح

الاسرائيلي ورأيته يقدم عذراء ضحية وفاء لما نذر اثر انتصاره لقلت مع القائلين تلك فضيلة ونحن اليوم نعدها همجية بل وحشية . وتأمل ان شئت او ظنّ انك في هيكل فينيقي للالهة عشتاروث معشوقه اذونيس ونساء الهيكل — راهباته — يقمن عيده في شر الزنى والفسق والخلاعة، والشعب يمدحهن ويتبرك من اعمالهنّ ويعد فعلهنّ فضيلة مقدسة ، ونحن اليوم ندعوها خلاعة وعهارة ليس شر منها

وماشني ابضاً لنذهب الى ما بين النهرين الى العصر الاشوري والبابلي والكلداني وننظر الى ارباب الدين وما يفرضون على الذكور والاناث من عمل مكروه لمغفرة الخطايا وقل لي ماذا كنت تقول لو كنت في ذلك العصر الم تجهر مع القائلين الكثر تلك فضيلة -- بلى - - وحجتي ان الانسان يساير المجموع ويأتم به ويفكر افكاره ويقر اعماله ليكون منه مقربا واليه محببا . هكذا قل عن مدنية الاغريق والرومان وغيرهما مما يطول بنا سرد اعتقاداتهم في مثل هذا المقام، فما عليك الا ان تسال بطون التواريخ تنبئك عما تريد

ليست الفضيلة الدينية والمدنية نظرية رياضية مقررة تصدق على كل الاجيال ، بل ما هي الا عادة يعتادها القوم فيجلها ويمتدحها وينظر اليها نظرة قدسية فيحترمها ويمارسها والويل له ان هو انكرها فانه يحرم ويقطع

لقد كان القوم عندنا قبل الحرب العامة يسخرون من الرقص المذكر المؤنث والتمثيل المشين ورقص العراة ويعدونه ضربا من سوء الادب ونقصاً في التربية الخلقية اما اليوم فينظر لهذا نظرة احترامية وسوف يعد فضيلة في طول الزمن

اذن ليست الفضيلة الا عادة وما هي الا كلمة ينطوي تحتها اعمال اجيال تكيفها حسب المحيط والبيئة ، ولقد قيل ان الفضيلة في معرفة الخير اي التشبه بالله ولما كان الله هو الوحدة المنظمة والمرتبة لجواهر الاشياء فالتشبه به هو تنظيم قوى النفس المختلفه وترقيتها الى ذروة الكمال الى ما يرتاح اليه الانسان ويرى فيه سعادته حسب جيله وما يكتنفه من مشاغل الحياة ولقد تكون الفضيلة بالتجرد عن البهيمية وانَّى ذلك والانسان جزء من الطبيعة خاضع لنواميسها واحكامها قسرا تكيفه وتتلاعب به هازئه وهو منقاد لها صاغراً ، تتحكم به في مأكله ومشربه ومنامه وتناسلياته الى غير ذلك وما ندعوه فضيلة هو الكمال وما الكمال الا كلمة لا معنى لها كما ان لا معنى للفضيلة وكلنا ضلول نتلهى بالاقوال ونزرع حروفاً في بطون الاسفار كولب ليس له بداءة ولا نهاية او كريشة في مهب الرياح لا تستقر بمكان تتقاذفها الاقدار انَّى وكيف شاءت

....

كلمات

لكل جيل فضائله ونقائصه ، وقد تكون فضائلنا نقيصة عند الاقدمين ونقائصنا فضيلة

الانسان ابن الدهر والدهر العوبة الاجيال

الحنان الوالدي

— وكيف تولَّد —

لا بد لباحث هذا الموضوع من ان يرجع بالذاكرة الى ملايين السنين مستعرضاً حالة الانسان القديم يوم كان ياوي الى محاجيء الصخور والكهوف متسلقاً الاشجار يقتات بما تجود به الطبيعة ، شان سائر الحيوانات او بما يقتنصه من حيوان البر او ما يصيده من سمك البحر . ولما كان جوهر العقل فيه قابلا لسنة النشوء والارتقاء اخذ يتطور شيئاً فشيئاً بقوة التمرين والبحث عن ضروريات الحياة التي يحتاجها ، فاحس بعاطفة الحب فاستاثر بالانثى واخذ يدفع عنها غائلة العوادي وينتقم ممن يعتدي عليها وآنذاك شعر بضرورة تاليف العائلة فاكثر من الازواج واكثر من الانتاج فكانت العائله ثم القبيلة وله الزعامة والسلطان ، وما احتفظ الانسان بالاولاد الا على امل ان يكونوا له درعا وساعدا قويا وقت الملمات . فاخذت هذه العاطفة تقوى بالجنس البشري رويدا رويدا حتى اصبحت ما يقرب من غريزة متاصلة به ولا يزال اثرها ظاهرا وسببه الانانية او حب الذات ، ولنا شاهد على ذلك ، اذا ما اشير على رجل بالزواج مثلا قيل له تزوج وغدا ترزق ذكراً يكون عونا لك يوم يقعدبك الدهر عن العمل ، ويخلد لك ذكرا ولولا هذه الانانية في الانسان ولولا اللذة لما وجدنا عائلة وشعباً ورقياً

وانت ترى من هذا ان الحنان الوالدي مجتلب بحكم الاثرة لابحكم الغريزة ولو بقي الانسان كما كان قديماً لكان شانه شان فصائل الحيوانات الماثلة امامنا ولكن ، شكراً لجوهر العقل المرتقي وللانانية ولتفاحة حواء التي احبها آدم القديم — ولما يزل — واختص بها لنفسه وكان بها تاليف العائلة وبواسطتها تولد الحنان الانساني ورب قائل يقول ان الحنو في الانثى غريزة اصلية نعم ومن ينكر ذلك ؟ فقد كان في الانثى غريزة ولكن لوقت معلوم ، مدة الحضانة فحسب كما نشاهد في فصيلة الاسد والنمر والغنم والخيل وسائر الحيوانات فهي تحنو على صغارها وتعولها اثناء الحضانة وعندما تغدو قادرة على اعالة نفسها تدعها وشانها وتنكفي عنها غير آبهة لها

من هنا ارى ان الحنان الوالدي لم ينشأ يوم نشوء الانسان القديم ولم يكن الا بعد ان ترقى العقل البشري واخذ يبحث في الحياة بحثاً يحبب اليه البقاء والراحة ولكي يدرأ عنه شر الحيوانات المفترسة او الند القوي احتفظ بالبنين وتعهدهم، لا شفقة بهم بل رأفة بنفسه وهو سر الحياة ، وحبه الدنيا وتعلقه بها اوجد الشرائع والقوانين ومصطلحات هي العدل والرأفة والرحمة والحنان والشفقة ومرجعها حب الحياة وحفظ الذات والرغد بملذات الدنيا

نحن مدينون بوجودنا الى تفاحة ادم والى الانانية وحب البقاء الذي ولد السيادة والزعامة، وجملة القول انما نسميه حنانا والدياً اليوم هو محبة الذات وهو خير ما توصل اليه العقل الانساني ويجب ان يعنى به عناية كلية تكفل للنشء حياة طيبة صالحة تسعد به الحياة وترغد ، ولا يزداد الحنان الاً بحب الوجود والشعور الحساس وحاجة الفرد للاخر

الانتقاد

كثر النقاد ولا سيما في هذه الايام وبات كل حامل قلم او خاط سطر يتهجم على افاضل القوم من رافعي علم البيان فينال منهم دون ما اظهار سبب او علة ، متوهماً ان مجرد القول او النيل من فلان وفلان يكفي لان ينيله اسما او لقباً فيعد في زمرة المتأدبين الباذلين قوة عقولهم وراء البحث والدرس والتنقيب وقد عزب عن بال اولئك المتطفلين ان مجرد معرفة شيء من متن اللغة لا يكفيهم ولا يعطيهم حقاً يخولهم الغوص على جهابذة اللغة واعلام الادب وليس مجرد الانتقاد ان نعيب زيداً من اجل خطيئة ما وردت في كلام الفصحاء او لم تثبتها المعاجم او لم ينص عنها الائمة ، فللكاتب ملء الارادة والحق باتيان تعبير مفهوم منطبق على مقتضى الحال يعرب به عما يكنه فؤاده من الاراء والافكار التي كثيراً ما تعجز بفضل مفردات اللغة عن الافصاح بها فيعمد الكاتب الى كلمة ينحتها من لغة اجنبية عرفت للمعنى الفلاني او ان يضع كلمة من عنده حسب اجتهاده و بحثه وهذا كثيراً ما نراه في كتابة الاعلام من اساتذة الجامعة المصرية. والانتقاد يجب ان يكون بتحليل الفكرة و بسطها على اساليب المنطق والبيان والنظر فيهامن وجهتها العمرانية والاقتصادية وملاءمتها الحالة الحاضرة لان لكل عصر اراءه وافكاره وعاداته ، والبشرية سائرة الى التجدد ان في تحسين نسلها او مدنيتها او راحتها ورغدها لان الجمود

قد نفر من عقاله وفكت القيود وراح الفكر يبحث وراء ما يراه حسناً وموافقاً للحياة

وليس من حق استاذ ان يحمل على طبيب في نظريته لجهل الاستاذ علم الطب وكذلك ليس من حق الطبيب ان ينتقد مهندساً لان المبضع لا يجتمع مع الزاوية والنصب، وهكذا قل عن اصحاب الاختصاص كل واحد بمفرده وما يسوء ويعرقل سير الادب ان ترى البعض ممن لم يكتب لهم في سفر الحياة ان يكونوا على جانب من العلم يحملون على آراء المجيدين دون ما تبيان سبب او نقض حجة بمثلها وبرهان ببرهان، بل تراهم يكتفون بقولهم ان النظرية الفلانية خطأ محض وان الرأي الفلاني ليس له نصيب من الصحة ويوقعون اسماءهم في ذيل ما يكتبون ليوهموا الناس انهم ممن يسترشد بارائهم او انهم يفهمون — الا بئس ما يفهمون —

على ان للانتقاد شروطاً وضعها اربابه لا ارى بأساً من ايراد شيء منها : (النقد لغة مصدر نقد الدراهم وغيرها اذا ميزها ونظرها ليعرف جيدها من رديئها ومنه يقال نقد الكلام اذا ظهر ما به من العيب واصطلاحاً هو عرض الكلام في كل علم ومصنوعات كل صنعة على قواعد العلم والصنعة فما انطبق على القواعد كان صحيحاً وما خالفها كان فاسداً، وما يضطلع بالنقد الصناعي الا حذاق الصناع وبالنقد العلمي الا العلماء وارباب الاختصاص فالنحوي يضطلع بنقد العبارة من حيث صحة التركيب ولا يضطلع بنقد الرسوم الهندسية وانما ذلك للمهندس البارع وهكذا الحاسب والطبيب والاستاذ كل بفنه)

ولانتقاد فكرة فلسفية يجب لها عارف ملم باساليب الفلسفة فاهم ما ينتقد

ليظهر الى جانب الخطأ القول الحق لا ان يقول هذا خطا دون ما ابداء راي ومن كان هذا شانه فما هو الا ثرثارة مدع مغرور — نعوذ بالادب والعلم منه — ومثل هذا كثير ولا سيما في هذه الايام ، ايام القحط وقلة العمل ، لانك لا تجتمع بجماعة ادب الا ترى الادعياء قد تألبوا من حولك واخذوا يتشدقون تشدق التعب الكليل في ليلة قر فيلقون الكلام على عواهنه ويحملون على هذا وذاك ، والويل لمن اراد مناقشتهم وافهامهم غلطهم وعدم صوابهم ، فقد تحمل الحدة احدهم الى الشتيمة والسبة وافراغ ما في وطابه من بذيء الكلام بين الارعاد والازباد الخ

هذا ما عنّ لي في هذا الموضوع اكتبه لاحث من شاء ان يكون منتقداً حقيقياً بارعاً ان يجد ويجتهد ويسعى وراء العلم لاوراء الطاولة والزهر مكتفياً بما عنده من غرور والله الهادي ء سواء السبيل

....

كلمات

الجاهل مكثار واما العالم المفكر فمقل

الانتقاد سهل واما العمل فصعب

الاثمار كثيرة في الاشجار واما جنيها فمتعب

لا تجد على وجودك

قد تكون ايها القاريء من الاغنياء ذوي اليسار فتتافف من الحياة اومن المدقعين ذوي الحاجة فلا تنظر اليها الا متشائماً ترى كل ما فيها بوءساً وشقاء فتحمل من الموجدة عليها ما استطعت ، تتقبل نهارك بالتاوه وليلك بالنواح والبكاء لا يروقك شيء مما في الوجود فتقضي شوط الحياة سوداوي الطبع مغموماً بين التعس والنكس وما ذلك الا لانك تعودت ان تنظر اليها نظرة تعس حزين الهاه ما في جنانه عن ايجاد الهناء

ولو اتيح لي ان انزل الى عمق اعماق قلبك مفتشاً منقباً عن السبب فلا شك اني اعود ظافراً باكتشاف ما يسمونه الطمع بما في ايدي الناس اوالحسد ممن هو اعلى منك رتبة تتطاول بعنقك اليه وتسعى لمنصبه بالفكر دون العمل والصبر والامل غير تابع ارشاد وحي الضمير الاولي الذي قلما يخطيءُ ، تتمنى ان تكون في بسطة من العيش دون ان تنهج منهجا سوياً يوصلك الى ما ترمي اليه تفني الليالي والايام بالاماني وانت قابع في عقر دارك لا تحرك ساكنا ولا تسعى في مناكب الارض تطلب فيها مرتزقاً يدرأ عنك الحاجة وما ذلك الا لقصر همتك وخمول عقلك فتجد على وجودك مكثراً من اللو وليت — وما تحصد الا — ما ولا — ترخي على عين بصيرتك غشاوة لا ينفذ اليها بصيص يهديك سواء السبيل ويبصرك برغباتك التي تتمناها دون الكد والعناء ، نتوهم ان الطمع والحسد ينيلانك ماُربا وقد غرب عنك انهما سبب تعسك

وشقائك تهيم على وجهك خابطاً خبط عشواء في مضلة معسفة فلا تصيب بعد جهد الامال وعنائها الا ما يزيد في كربك وضيق صدرك

الا ايها الواجد على الحياة الذاهب بها مذهب المتشائم عد بعقلك الى عهد الطفولة وابحث ملياً مستعيداً للذاكرة ايام الحداثة وما كنت تشعر به فيها قبل ان شببت عن الطوق ، كيف كانت تبسم لك الحياة عن وجه نضر مفتر تطرب لعواء الكلب وتضحك لاشارة والديك وتسر بما لديك من لعب، لو استعرضت كل ذلك لاهتديت الى سرائك واتخذت من الحداثة دروساً لمستقبلك ولعلمت ان سر هنائك و بحبوحة عيشك لا يكونان الا بتجويد عملك فكما كنت تاتي من ضروب الخفة والرشاقة امام والديك او زائريك استرضاء لهم وخطباً لودهم ليجزلوا لك العطاء والهدية ، كذلك اتمام الواجب بقلب رحب مدعاة للهناء والاغتباط ، ولا يخفى ان العمل الصحيح مجلبة لارضاء الضمير و به رغادة العيش و برغادة العيش حصان اليد ، لا يعكر صفو خاطرك ما يقلق راحتك و يفسد عليك عيشك فتظفر بضالتك وما تنشد وتسعى اليه جهدك

وجملة القول، ان خير طريق تؤدي الى النجاح ورفعة المكانة تجويد العمل والنظر الى الحياة نظرة حكيم لا يعبأ بما في ايدي الناس ولا بما يطرأ على الانسان من الطوارئ الطبيعية التي لا مناص منها كهجر حبيب او فقد عزيز او اغتراب او مغادرة بلد الى غير ذلك من الامور الحادثة في كل آن ومكان . والحادث اذا ما تكرر وتعود الانسان ان يستقبله برحابة صدر صار ضربا من الامور التي لا يهتم اليها ولا يمر بها الا مر الكرام، فمن درج على ذلك القول وانتصح بنصحه قضى شوط الحياة بامن وسلام قرير العين مسروراً

النمام

في هدوء الليل في سكون الطبيعة تحت الاشعة الفضية رايته ينهب الارض في سيره يوم مكانا مقصودا فلحقت به لاتبينه فاذا هو يقف عند كل باب وتحت كل نافذة يصغي بسمعه ـ كانه الخلد ـ يتسقط الاخبار ليحملها الى من لا يكون له شاكراً على صنيعه ، فانتحيت ناحية انظر اليه وما يكون من امره وما ان فرغ من تسقط ما يريد حتى رجع القهقرى الى منزله يعد ما وصل اليه، ليفضي به الى غير واحد من البشر فعرفت انه المحتال النمام الذي لا يهمه من امر الحياة الا التحدث عن الناس والنيل من كرامتهم .

ارأيت الساعي بالنميمة المتظاهر بالتقوى ما يعمل في ليله ؟ انه يعد في وطابه من الاخبار والاحاديث المؤلمة ما لو صرف عنه الى غيره لعاد عليه بالنجح والشكران وكفى الناس شره واراح واستراح من عناء ينتابه في كل لحظة ويرتجف له فؤاده وتخور له قواه فيخشى ان تصله كلمة عتاب او مذمة ممن وشى به وتحدث عنه بما لا يليق بابن عصر صرفت فيه الجهود الى العلم والعمل والبحث والتنقيب

يخيل لي وهو قابع في داره انه لا يرى هناء ولا يشعر برغادة العيش الذي يرغد به المنعمون الساعون في مناقب الارض يعملون ما تحتم عليهم في هذه الحياة الدنيا التي ما وجد فيها الانسان الا للعمل المنتج المفيد وليسعى نحو الكمال

والفضيلة لان غاية الحياة عمل الخير والاتحاد مع الروح الاعلى ، والعقل لا يتصل بذلك الروح وهو مثقل متعب تنتابه وساوس وافكار خوف او حسد او نميمة، لان هذه تجعل غشاء كثيفاً يحول دونه ودون ذلك السمو الفكري الذي يرتاح اليه الكائن الحي المفكر ان هو سعى باخلاص اليه ونبذ كل ما يجلب له التعب والشقاء واي تعب وشقاء اشد من النميمة والوشاية ؟

يقول البعض ان بين البشر اناسا طبعهم الخبث وطويتهم الوشاية وراحتهم الحسد والنيل من عرض زيد والحط من كرامة عمرو — على ان الانسان ابن التربية والمجتمع — فلوجبه المفسد الواشي من اول مرة لتربى وعاد على عقبه خاسراً خاسئاً ملء صدره الندامة ، ولكن ما العمل اذا لاقى تربة خصبة لبذاره الا يبذره هادئاً مطمئناً وله من سلاطة لسانه ما يكفل له سرد الاكاذيب وصوغها بقالب كانها الحقيقة الراهنة التي لا تحتاج الى اسناد وبرهان ، وما ضر ذلك المخلوق لو صرف افكاره الى غير هذه الوجهة وراح يبحث عن عمل يفيده ويربحه طيب الاحدوثة ويكفل له نجاحا يحسده عليه مثيله، فيأتم به ويسعى سعيه ، واننا لا نبحث في كتاب اجتماعي فلسفي او في مقال حتى نرى غاية العلم الوحيدة ايصال الانسان الى المثل الاعلى من حيث السمو الفكري والاخلاق والراحة .

ايظن ان الكاتب او المنشيء يكتب لفئة من الناس او للملأ اجمع ؟ وما يظهر من خلال الاسطر ان ما ينشر عام ليس هو لبكر دون خالد ولا لمريم دون هند بل هو للكل على السواء فهل للنمام ان يرجع عن غيه ويهدأ ويرضي الناس اخوانه بحفظ لسانه ويسير في طريق الفهم؟ ليرضى الله عنه ويثيبه خيراً

واي راحة بل اى اطمئنان فكر وهدوء احلى للانسان من قول الشاعر :

على انني راض بان احمل الهوى   واخرج منه لا عليَّ ولا ليا

اليس جميلا للانسان ان ينخرط في هذا العالم ويخرج منه لا له ولا عليه فيلاقي ربه ممدوحاً مشكوراً

من أنت ومن أنا ؟

رويداً أخيَّ ويظهر العلم مبدأ فتعرف من انت ومن انا ؟

قدك ايها الانسان الغبي جهلا وكفاك تمسكا بالكتب الصفراء التي لا تعرف ما تنطوي عليه من معنى بل قد تغرك الظواهر ويعمي بصيرتك اقوال من ضرب الوهم على وجوههم ستارا لا ينفذه نور ينير امامهم طريق الهدى المؤدي الى حسن المآل وسواء السبيل

كبر اثمًا عند الله ان نرى ادعياء العلم والمتمسكين بقشوره يعدون انفسهم اقطابه ونقطة بركاره وهم بعيدون عنه بعد القطب عن القطب او الزهرة عن زحل وما مثلهم الا مثل الحباحب يوهم الرائي ان فيه ناراً وما هو بوميض يخادعون الله والله خادعهم بما يعملون . انهم لقوم حق عليهم العذاب لانهم يضللون ويضلون ويفرقون ويجرون الدماء انهاراً تخالها السيل العرم ، فبئس ما يفعلون

من انت ومن انا ؟ انا اخوك وابن جلدتك رضيت ام ابيْتَ وان كنت

ممن يستعظمون الامر فسل بطون الارض تنبئك بما اقصه فيهون عليك نزق الشباب وحدة الكهولة وتعلم ان محدثك يقصّ عليك الحق الذي لا مراء فيه، فلا تحتاج الى ساعات بحث طويلة لتمشي معه مخاصراً ومناصراً ، هلاَّ فكرت ايها الانسان السائر في طول الارض وعرضها ان تأخذ يوماً مدرة وتحلل ما فيها من مواد حيوانية فتعلم ان جسد جدك وجدي قد اتحدا فيها بعد ان تباينا وتنافرا فى الحياة لامر بسيط ووهم استعظماه فنغّص عليهما العيش وامره وحول جنتهما ناراً وسعيراً انهما ابتعدا ووجدا على بعضهما ولما ان نفدت قوة الحياة منهما تعارفا واتحدا بقوة التحول القاهرة الجبارة . ام فكرت ايها الانسان فيما تاكل من مواد غذائية وعلمت ان خلاصة من تقدمنا قد دخلت في تلك المواد وهي تتكيف فينا وتغذينا وتكيف قوى حياتنا هم تقدمونا ونحن بهم لاحقون فلِمَ لا نتعارف وفينا كل قوة تفكير واستنتاج؟ وان قيل ان في الجماد قوة الحس

الم يجيء « اني خالق بشراً من طين » وخلقة آدم الجد الاول كما يقال من تراب والتراب اصل الحيوان والنبات فلم نحن متخالفون ؟ الا قبح الانسان ما اجهله يعتدي على اخيه لامر وهمي لا نرى له وجهاً صوابيا ولا قولا معقولا .

ان كل ما يقال لو نفكر قليلا هو هدى لنا ان نحن ازلنا الغشاء اللطيف عنه وتتبعنا مورده بصدق وامانة

عشنا في امن وسلام وقطعنا شوط الحياة في بحبوحة العيش الرغيد لا يعكر صفو عيشنا طامع ولا يضلنا ضال ولكن طمع الانسان ووهمه وما ادراك ما طمع الانسان ووهمه يشط به الى سوء المصير والذل والهوان فيردد

يا ليتني بقيت في جوف الارض ترابا لم تلفظني الى الحياة لاقاسي من هوانها عذاباً اليماً وارى من جهل ابنائها بلاءً عظيما وامتحانا شديدا فمن لقمع نواجم الفخر وكف طوالع الكبر والجهل -- انه لقريب --

نعيب زماننا والعيب فينا   وما لزماننا عيب سوانا

الحياة هدم وبناء

شاءت القدرة ان تكون الحياة فاوجدت اولياتها من جماد ونور ونبات وحيوان يخضع الواحد للآخر قهراً مسيراً غير مخير بعامل لامهرب ولا مفر منه فكأن سنة الحياة لا تسير الا بالخضوع والاذعان

وجدت هذه الاشياء منذ ملايين السنين ودرجت على سنة النشوء والارتقاء، فتوصلت الى ما هي عليه من جمال يروق العين ويثلج الصدر ويبعث في النفس ارتياحا، وما انتهت الى حالتها الا بعد ان قطعت اشواطاً شاسعة الاطراف مترامية القدم كان نصيبها الهدم والتجدد والاتلاف والتحسين كأن السنة الطبيعية لم تكن نصيب نوع ما بل نصيب كل من وجد في هذا الكون ولما كان الانسان هو الجنس العامل المفكر على ما يظن جزءاً منه اقتبس ذلك الدرس من الطبيعة ودرج على سنة الهدم والبناء حتى تسنى له ان يصل الى حالة مرضية ولما يزل يسعى في المزيد لينتهي الى مثل اعلى في الحياة الميكانيكية والخلقية، وقد يجوزهما وفي نفسه الاقدام الى امر اتم واكمل، كأن القدرة ابت على الانسان الا ان يكون عاملا مقداماً لا يقف عند حد محدود وهو يظن

بنفسه انه انتهى الى اقصى حد في هذا الكون ، ولقد ياتي على البشرية طور من الاطوار ينسيها علومها ومخترعاتها واختباراتها فتشل الايدي ويقف الفكر كأنه في بدء تكونه يعيد حالة الانسان الاول فيمشي على خطة سلفه ، يسعى ويجد كادحا ، وليس هذا الرأي يبعيد عن العقل ولنا من تواريخ الاقدمين شاهد عدل ومن آثارهم المكتشفة ما يثبت هذا الرأي ، هذه بعثة ما بين النهرين الاثرية التي تكدح في ارضه تكشف لنا آثارا تثبت ان الحياة عرفت في تلك البقعة قبل خمس آلاف سنة ومدنيتها اقدم من مصر وفيها وجد صوغ الذهب والفضة وصهر الحديد ، ومعلوم ان وجود تلك المعادن ينبيء عن مقدرة الانسان في ايجاده واستعماله بمعرفة وحكمة ولقد يكون قد اوجد مخترعات درس اثرها ، لم يتوصل اليها ابن هذا العصر ، والقاعدة العرفية لدى علماء اللغات انه لا يمكن ان يكون اسم لغير مسمى ولنا في الحكايات كلمات لا يمكن ان تكون قد وجدت دون وجود اثر لها ، منها : خاتم لبيك ، بساط الريح ، قبع الاخفى وحصان الجان الى غير ذلك ، ومن يدري ان هذه المسميات قد كانت عند الاقدمين للراديو والتلفزيون والتلفون والطيارة والاتوموبيل ، وليس زمن صعود ايليا النبي الى السماء بمركبة نارية ببعيد

قد يستهزيء القاريء بهذا الرأي وقد يبني عليه امورا كثيرة ينسبها الى ما لا اعلم ولكن اعمال الفكر ومراجعة التاريخ وتتبع اخبار المكتشفات الاثرية تهيب به الى التصديق والاذعان لهذا الرأي فيعلم ان الفكرة هي هي منذ البدء والى الازل ، ولقد يكون الواحد منا موجودا منذ ملايين السنين يتطور في وجوده وكيانه وتفكيره كالسبيكة الذهبية المصهورة في بوتقة الصائغ

والمحولة الى اشكال وانواع تصاغ الى شتى الاشكال ، وماهيتها واحدة وبوتقة الصائغ القدير والقوات المشتركة تعمل محولة تلك المادة الى مادة اخرى

اننا لغاية الان نبني ظنونا واحداساً كثيرة على الجنائن المعلقة وكيفية بنائها وايجاد الاشجار وانواع النباتات والمياه فيها ، هؤلاء علماء التاريخ يذهبون مذاهب شتى في كيفية بناء اهرامات مصر والمكسيك وكيف رفعت حجارتها واعمدتها، وفي قلعة بعلبك وتدمر وكيف قطعت احجارها وربتت وقامت تهزأ بالدهر وبابناء الاجيال المقبلة منبئة عن مقدرة الاجيال الغابرة يقصدها الكثيرون فيدهشون من ضخامة حجارتها واعمدتها وحسن هندستها ، ان اثارا جليلة مدفونة في اصقاع الارض لم تصلها ايدي المنقبين وكلما ظهر لهم اثر ما غير وجهة تفكيرهم التاريخي وراحوا يبدلون من رأيهم ومن تاريخهم المدون ما يثبت لنا سنة الحياة ، فهي تهدم وتبني وما من امر حديث يستجد الا هو اثر فكرة حقيقية عمل بها او وهمية سعي لايجادها ، ذهب عصر البخار وقام على انقاضه عصر الكهرباء؛ ولقد يذهب عصر الكهرباء ويقوم على انقاضه عصر آخر اجل واحلى ولقد يكون العكس ، والحياة لولب يدور في مدة معلومة قد تكون في منتصف هذه الدورة او في طرف من اطرافه ننتهي حيث انتهى السلف ويبتديء الخلف وهذا ما يدعو لاثبات قول الحكيم ليس جديد تحت الشمس هذه العربة يقوم مقامها الاوتوموبيل والتلغراف السلكي باللاسلكي والفونوغراف بالراديو وهكذا قل عن التليفزيون والتلفون المصور بلاسلكي والة جذب الاصوات الباقية والتي ستبقى ما بقي هواءٌ ونور في قبة الفضاء، ولا تزال هذه الآلة تحت الدرس والبحث وما حجر الفلاسفة الاقدمين

فكرة خرافية بل حقيقة راهنــة يثبتها الزمن ويؤيدها البحث والتنقيب والاختبار ومن يعش ير

حديث يافع

هو يافع يتراوح بين الثانية عشرة والثالثة عشرة من سنيه يتحدث اليك كأنه هرم حنكته السنون وضفرت على راسه اكليل الكبر ابيض ناصعاً ، جلست اليه اسمع ما يقصه عليّ من مخيلته الصغيرة ، قال ترى لمَ وجدت ومن انا والى اين اصير وهل ابقى كما انا ؟ ام ادرج الى سن تؤهلني الى ان اجالس زوارنا واشاركهم باحاديثهم فيصغون الى ما اقول كما تصغي انت الى والدي عندما يخاطبك ويفتح تلك الكتب الكبيرة فيعلو صوتكما ويحتدم الجدال بينكما ثم تهدآن وتركنان ركون الماء المطمئنة الهادئة ثم تثوران ثوران بركان يقذف حممه غاضباً

آه اني في كل يوم اخلو بنفسي مدة من الزمن اتأمل هذه الحياة وارسل رائد الطرف في الليالي المقمرة الى الفلك الدوار فيسقط في يدي لما يخيل لي من جمال هذا الكون العجيب باسراره البديع بتنظيمه ، اترى وجد للعبث ام لامر ما ؟ وما الغاية من وجوده اهو « مرتكز على قاعدة ما » واين مقرها؟ ام هو ثابت بقوة الجاذبية ام باحديداب الكون كما يعلمنا استاذنا، ان فكري الصغير ليضيق جد الضيق عند هذه الابحاث فارتمي الى كرسي طارحاً ما بيدي

من كتب لانها لم تنقع غلة ولم تطفيء اوار ما في داخلي من نير ان تأج لاستطلاع الغامض واستكشاف المستتر طي حجب الابد

اراني واقعاً في حيص بيص عندما استرسل الى افكاري سابحاً في ذلك الجو الذي تقصر عنه افكار كثيرين ، فلا يكادون يثبتون امراً حتى يقوم من ينقضه ويدك اسه الى الحضيض ولا يزعمون افتراضاً حتى يلقى لاقل بادرة تخطر او تتراءى امام شخص فيهدم ما بناه الأول واثبتوه وهكذا دواليك ولا نعلم من امر وجودنا ومصيرنا شيئاً ، وما يشغل خاطري ويقض مضجعي امر طالما ملك عليّ حواسي ومنعني لذة الراحة فما اشعر بشبه ما يسمونه اطمئناناً لاني دائماً افكّر بامر الغاية التي من اجلها وجدنا ووجود هذه العوالم ألعبث ام لغاية ما ، وما هي ؟

هذا ما سمعته من ذلك اليافع وملء صدره حسرة يصعدها الما وزفيراً حقاً لقد اصبحنا في عصر التبست به الحقائق النظرية واخذ كل يفكر ووجهة بحثه غاية يرمي اليها ويبذل في سبيل تأييدها جهوداً ، فمن مؤمن يحيل الى الوحي ما قصر الفكر عن ادراك كنهه ومن جاحد يحيل الى الصدفة والسفسطة ما اغلق عليه وبات المطلع الحدث بين عاملين عامل الوحي وعامل روح العصر تتقاذفه اهواء ومخيلات العالم فراح يهيم على وجهه لا يعلم من امره شيئاً واصبح كريشة في مهب الريح ، لا وحي يركن ويطمئن اليه ويستقرىء منه راحة ضميره ويستن ، بادابه ونواهيه ولا مبدأ يعمد اليه فيقتبس منه خلقاً عالياً يقوده نحو الخير والفضيلة — ولا اقول التضحية لان ما من تضحية الا يقصد منها غاية او منفعة ان عاجلة او آجلة

ومن كان هذا موقفه لا يعلم سبيلا يسلكه ليصل الى المينا الامين الذي يريحه فما عليه الا ان يبحث في كل كتاب حتى اذا ما رأى صوابية ارائه وراحة ضميره واطمئنان قلبه عمد اليه واخذ عنه الآداب التي تخدمه بين قومه وتعود عليه بنفع جليل يقضي به شوط الحياة بامن وسلام واضعاً امام عينيه حب الخير والمساعدة فاهما الاَّ شيء للعبث وما من مخترع يوجد آلة لغير ما نفع وليس وجودك ايها اليافع عبثاً ولا تلك الكائنات للعبث وحكمة المدبر العظيم فوق كل عقل والرجل الحكيم في عز وذو المعرفة متشدد القوة

....

ما انت صانع لمستقبلك

على رسلك ايها الشاب السائر في الارض مرحا ، السالك سبل الحياة غروراً، يقودك عنفوان الصبا الى حيث لا تدري من نهاية مصيرك شيئاً ،قف قليلا وانظر الى ما حولك من جمال الكون وخذ من صحائفه درساً فهو خير ما تعتمد عليه كتابا تستظهر بعض صفحاته دون ما تعب او ملل ، ففيه عبرة للمتبصر الحكيم وذكرى للاديب الاريب وفائدة للطالب الحدث

الا اصغ الى ما اقصه عليك من دروسه الجذَّابة وفوائده الجمة التي لا تجدها طي الروايات المولع بها ولا في افواه من تغازل ، حتى ولا فيمن احبته نفسك فمالت اليه ، وخلته انت الكل في الكل ، وان هو الا سحابة صيف وتنقشع او لمعة برق تخطف الابصار وتمضي متبددة في مسام ذرَّات الهواء حيث لا ضباب ولا نور الا بالتكاثف والاحتكاك

وقبل ان ادخل في محادثتك ، علي ان اعلمك ان من يخاطبك شاب قد تتقاذفه الاهواء احيانا ويميل اليه زهو الشباب الى حيث امالك ولمّا يزل ، ولكن له من فكره وبصيرته ما يقضي على الاهواء والميول ويرجع الى استاذه الاكبر – الكون – يأخذ عنه ما الفكر دال عليه والعقل مقتنع به ، ما انت صانع لمستقبلك وانت غض الاهاب ممتلىء الجسم مفتول الساعدلك من القوة والنشاط ما يدك كل عقبة كؤود ويتغلب على مافي الدهر من متاعب ومشاق ، هل فكرت ان تبدأ بحفر اساس المستقبل وانت في العقد الثاني من عمرك ؟ ام استرسلت مع الاهواء وتجاوزت العمل الى حياة الكسل والغمز واللمز غير مهتم بالمستقبل ولا ملتفت الى ما يكون ، ام عولت على ثروة ابيك ان كان من اصحابها ام على عيشة الاتكال وما الاتكال بك لائقاً ، هل استنطقت الارض يوماً وسالتها ان تلقي عليك درساً ، ام سالت حشرة من حشراتها ان تفيدك ما انت جاهل

بربك قل لي ماذا تعمل يوم يكشر لك الدهر عن نابه وتدرج الى سن ترى ما كان سهلا وانت فتى اصبح صعب المنال قصياً لا تقدر ان تكسب خبز يومك ، هذا ان لم تكن قد افسحت مجالا لطوارىء الامراض في بدنك ، اجهلت ام تجاهلت ؟ انك فرد في هذا العالم ، عليك ان تعمل له كما يعمل هو لك ، ويأتيك بما تأكل وتلبس وتستنير ليلا ، فان كنت متجاهلا وما اظنك لان المتجاهل لص يستحل اموال الناس ويربع في نعائهم ويشاطرهم العيش وهو منصرف الى الراحة يتريث الحين اثر الحين ليمد يده الى جيوبهم سالباً ، وما السلب الا عين الرذيلة والحطة والدناءة وانت الناطح السحاب بام

راسك ، تعـد نفسك طبقة فوق اخوانك ، وتخال انك بلغت الجوزاء انفة و كبراً

اخطر لك ان تسير في الارض وتمشي في منا كبها وتمد لها يدا لتمد لك يدا بسطة ما عرفت قط انقباضاً » وتعمل لدنياك كانك تعيش ابــداً وتعمل لاخراك كانك تموت غداً » وتعطي كما تأخذ وتاتي الغير خيرك كما يضمن لك الغير بحبوحة عيشك وسرّائك . ان كنت ممن لم يفكروا بالحياة وغايتها نخير لك ان تاخذ في اعالي الجبال منسكا تعتاش مما تجود به الارض من كلأ او في اجواء العالم مرتقباً تأكل قبض الريح مصروعا ، من ان تكون قدوة للاحداث تفسد عليهم المستقبل وتصير بهم الى حيث انت صائر وكأني بك تقول المستقبل بيد الله ، والله يرزق من يشاء بغير حساب ، الا ليت شعري قل ، ارايت خاملاً مرزوقاً ؟ ام ضارباً في الاسواق خفة ميسوراً وما ينال الطيبات الا من سعى و بذل في سبيلها ، لا من اتكل وانتظر في عقر داره خاملاً وقال رزقي يأتيني ولو كنت نائماً وقد فاته ان يد المجتهدين تسود اما الرخوة فتكون تحت الجزية

. . . . .

الانسان سر وحياته سر وموته سر اذن عبادة الاسرار واجبة وتقديسها راحة ، والكشف عن هذه الاسرار ضرب من الجنون

فلم التعب ؟

كرهت الحياة

ها قد وصلت الى عتبة الحياة بعد طول العناء فاذا هي مظلمة حالكة السواد امام عيني فلا من اسره ما بذات نفسي من المتاعب والمشاق ولا من يشاطرني ما حملتني اياه تلك العادات القاهرات التي اوجدتها نظم البشرية الغاشمة فلا هي ترحم فتريح ابناءها البائسين ولا انا اقدر ان اتمرد عليها لاني بعض افرادها علي ان استن سنتهم واسير سيرتهم محملاً نفسي ما لا اقدر عليه من بهتان ورياء ، هجرت العالم صغيرا واويت الى دير على امل ان ارى راحة ضمير واطمئنان قلب فاذا انا امام قيود وقيود ظلها اثقل من رضوى واشد وطأة من دساتير العالم وعاداته ، وجدتني مقيداً بارادة فرد اخضع للوهم واصدق ما تضيق امامه دائرة الفكر اقدس الوهم واسجد لصنع الانسان مكرهاً مجبراً فما انا بالند القوي لاصلح او افسد ولا انا بالعبد لاحمل ما انا في حل منه .

كرهت الحياة آنذاك لاني ابيت ان اموه على الخلق واتظاهر بما لا اضمره لاني لست خادعاً ولا ماكراً ولا متزلفاً فرجعت الى العالم مخلفاً ورائي قوماً بينهم المؤمن والخادع وعدت اعمل كما يعمل كل فرد من ابناء هذه الكرة اسعى وراء الرزق على امل ان استن لنفسي شريعة واعيش في عقر داري هانئاً راضياً فاذا انا في تعب شديد من قيل وقال بين افراد لا اعرف بينهم ناصحاً بل جلهم يودون تنغيص الحياة وتكديرها ، كرهت الحياة لاني رايت فيها الكدر والاتراح ، الاخ يتحبب الي ويده في جيبي والصديق يتملقني

ويده في احشائي والاب والام يقبلاني ويرغبان لي عمراً مديداً ورزقاً ميسوراً موفوراً ، اما انا فارغب الاّ يكون ذاك العمر وذلك الرزق وتلك الحياة ، كرهتها لاني وجدت اناسا يتسترون بكلمات اوجدتها البشرية وكم موهت بها على اشخاص فراحوا ضحيتها ، هي:

الدين ، العدل ، الرحمة ، الشفقة ، والرأفة ، فما رايت في الدين راحة ضمير واطمئنانا لاني كلما درست دينا وباشرته رأيت آخر يفسده ويندد به وكلما قرات كلمات العدل والرحمة والشفقة والرافة يثلج لها صدري وتطير وراءها افكاري فاغبط كما يغبط المؤمن الحقيقي بصنمه او وهمه ولكن لا اكاد اتبين تلك الغبطة حتى ارى انها كلمات وهمية اوجدها القوي ليظلم بها الضعيف ويستنزف منه آخر ما يملك من متاع الدنيا

سئمت الحياة وعاداتها وكل ما فيها كاني لست من هذا العالم ، فهل هذا نقص في الارادة او الاختبار ؟ كرهتها لاني وجدتها كلعبة الصغير يحبها وينفر منها بين الفينة والاخرى فهل من يحبب اليّ الحياة غير البعد عمن يفسدون ؟ قد تكون الحياة جميلة هانئة مطمئنة بين عصبة عرفوا ان يتلذذوا بتلك الايام المعدودة فعمل كل واحد ما يتوجب عليه نحو الآخر فعاشوا برغد وسكينة وهدوء لانهم عرفوا ان ليس للانسان في هذه الدنيا الا يومان يوم يولد ويوم يرحل عنها مخلفاً وراءه اما ذكراً طيبا او سيئاً مذموماً فما احسن الخلود بالعمل المشكور وما اشقاه بالعمل السيء

هنيئاً لمن لم يولد ولم يجيء لهذا الوجود وتعسا لكل مولود لانه سيحمل بين جنبيه من هموم الحياة وآلامها ما احمله انا او قد يبتلي بما انا مبتلٍ به اجد

واسعي ولكن لاسعاد من لست مجبراً على مساعدته لانه اشد واقوى مني عضلاً وافتل ساعداً ، فينغص في وجوده فيردد معي سئمت الحياة وكرهت نفسي البقاء فكاني لست من هذا العالم

موسى اقدم مشترع عرفه التاريخ

بعد حمورابي

اني اتحدث اليك في سطور قليلة يا قارئي عن اقدم مشترع بعدحمورابي عرفه الشرق الادنى وعنه اخذ اكثر المشترعين على انني لا اتدخل بعمل الوحي ولا اريد ان اذكر عنه شيئا لانه ليس من شاني ان انعرض لابحاث لاهوتية تحتاج الى اسناد وليس للعلم ان يصدق بالايمان والتسليم وسابحث عن المشترع كرجل كبير رئيس شعب نظم له كيانا وجعله شيئا مذكورا بعد ان ذاق مر العذاب مدة اربع مئة سنة في الديار المصرية

ولا شك ان الكثيرين من القراء يعرفون شيئا عن ولادة موسى وعن القائه في النهر وكيف ان ابنة فرعون تبنته وادخلته في كنفها كما هو منصوص في سفر الخروج الصحاح الثاني العدد العاشر القائل — ولما كبر الولد جاءت امه به الى ابنة فرعون فصار لها ابناً ودعت اسمه موسى وقالت اني انتشلته من الماء الخ وجاء في سفر الاعمال الصحاح السابع والعدد العشرين ، وفي ذلك الوقت ولد موسى وكان جميلا جدا فربي هذا ثلاثة اشهر في بيت ابيه ولما نبذ اتخذته ابنة فرعون وربته لنفسها ابنا فتهذب موسى بكل حكمة المصريين وكان

وكان مقتدراً في الاقوال والاعمال ولما كملت له مدة اربعين سنة خطر على باله ان يفتقد اخوته بني اسرائيل الخ » هذا ما ورد في التوراة وفي سفر الاعمال وما يقوله (مانيثو) مؤرخ المصريين نقلا عن التاريخ القديم لمارفي بورتر الصفحة ١٢٨ « ان موسى كان كاهناً من كهنة مدينة « اون » وتعلم جميع علومهم وصار رئيس قوم من البرص والمتنجسين فالتزم المصريون ان يطردوهم من البلاد اهـ . »

ومما لا ريب فيه ان امه في حال التربية قصت عليه اخبار قومه واشربته حب بني جنسه واعلمته بحقيقة حاله فشب وفي نفسه مطامع وآمال وقد ساعدته الدراسة والحكمة والمعرفة فاهابت به الى انقاذ بني جلدته ولم شعثهم وتأييد شوكتهم ورفعهم الى مستوى راق بعد الذل والمسكنة شأن الرجل الحكيم المفكر ، نظر موسى بعين رأسه الى ما يقاسيه اخوانه العبرانيون من العسف والجور الفرعوني ، فاراد ان ينقذهم من بلواهم ويعمل منهم شعباً قديراً وملكاً مرهوب الجانب فراح يتفقدهم وكان ما كان من امر قتله المصري المتخاصم مع الاسرائيلي وفراره الى برية مديان ملتجئاً يرعى غنم كاهنها وفي قلبه شعلة تتقد حماسة وتدفع به الى السمو والرئاسة — ومعلوم ان الوحدة ومناجاة الطبيعة كثيرا ما تفتق للانسان حيلا وتنير قلبه بقبس روحي ينير امامه المستقبل للعمل العظيم وهذا ما حل به ، فقد عمد الى قومه ودبر امرهم وفكر بانقاذهم فقادهم الى الصحراء ، ويبين لي ان بقاءه في الصحراء مع قومه مدة اربعين سنة لسبب تؤيده قرائن الاحوال وهو انه لما رأى ان الذل والمسكنة وصغارة النفس قد ضربت اصولا في قومه اراد ان يجعل منهم رجال بأس

وشدة أباة النفس اقوياء مقتدرين على مقاومة المشاق وتحمل مصاعب الحروب فبقي بهم طيلة المدة حتى فني الهرم منهم وذهبت مسكنته وقام النشء الجديد بقلب مفعم شمما مكتسب صحة وعافية وسواعد مفتولة يرعاهم بعين عنايته ويدربهم على الاصول الحربية ولما ان أنس منهم قوة ونشاطاً زحف بهم الى ارض فلسطين داعياً اياها ارض الموعد، وقد الّف لهم سفراً كله عزة نفس وشمم وامجاد و كفى ان قال لهم ان الله قد اختاركم له شعباً وانتم له ابناء فحاربوا وادخلوا الارض التي تدر لكم لبناً وعسلا وعيشوا برغادة واطمئنان ، اجلوا الاقوام عنها فهي الارض المعدة لكم منذ البدء — ولم يقصد ارض فلسطين الا لقربها من مصر ولان اهلها متفرقون غير متفقين -- وهكذا ادخل الله سبحانه في القتل والضرب والسلب وكان كلما أنس من قومه جبانة عمد الى قتلهم زاعما انها ارادة الله حتى جعلهم نمرة مفترسة والقى في روعهم ان المكون العظيم معهم وانه لهم وليس لغيرهم

ولا شك ان موسى قد جعل نظام قومه كنظام المصريين مع بعض تغيير اقتضته طبيعة المكان والزمان فسن لهم طرق الحياة كما هي مفصلة في عدد التثنية ولكي لا يحرم اخصاءه جهوده ، حصر الكهنوت في اخيه هارون ونسله والقيادة في قريبه صنيعة يديه يشوع بن نون لتبقى السيادة على قومه في عصبه

وهناك نرى ما فصّل من امر الذبائح وتأدية العشر الى الكهنة ليتفرغوا الى اعمال السيادة فلا تلهيهم عنها تجارة ومشاغل وهذا ما نقرأه في تاريخ المصريين عن الكهنة الذين كانوا يعتاشون من اتعاب الشعب جاعلين انفسهم

في الدرجة الثانية بعد الملك ولا يزال هذا التراث الى يومنا عند بعض الطوائف ٠

واننا نرى ان العبرانيين لم يعتقدوا باديء بدء بالحياة المستقبلة كما يتضح من قراءة الاسفار ولكن احتكاكهم بالبابليين اكسبهم الاعتقاد بها، قال فيليب فانس ماير في تاريخه العام الصفحة ٣١ « ان كلمة شيول البابلية معناها الارض التي لا يرجع الانسان منها وهي اقليم تحت الارض واسع مظلم ومكان رهيب محزن فيه الحقير والعظيم ولا فرق بين الاخيار والاشرار ونصيب جميع الهابطين الى الهاوية واحد والصالح ينال جزاءه طول العمر والنجاح على هذه الارض وعلى مرور الزمن بدل العبرانيون من تصور البابليين المظلم في شأن الحياة الآتية رأياً يشابه رأي قدماء المصريين بالخلود والدينونة » ولا شك ان موسى قد الهاه حب السيادة والفتح عن البحث في البعث فاضرب عنه وعمل ما هو اهم عنده

وجملة القول اني لا اتصور موسى رجلا حربياً مدرّباً الف محبة العظمة واساليب الحروب لاننا بينما نقرأ الوصية السادسة من الوصايا العشر (لا تقتل) بصورة النهي نراه من جهة ثانية يحرض على القتال والحرب وما اراه ان كثرة تقديمه الذبائح كانت غايتها ان يألف الشعب رؤية الدماء المسفوكة فلا ترعبه وقت الحروب فتكسر قواه المعنوية فيرتد خائباً لان النظر الى الدماء مهراقة على الارض تزيد القلب صلابة وتميت عاطفة الحياة وتقوّي محبة الاستئثار ٠ وما نسب الى موسى من المعجزات لا اعرض لها كما قلت لاني لا اعرف لها تعليلا ، وللانسان ملء الحرية بتصديقها ام عدمه

وعندي ان موسى ليس هو بالرجل الذي يستهان به وانّا اذا الصقنا به قوة علوية فحسب نكون قد غمطنا حقه، ولا يعقل ان رجلا درس وتعلّم وتهذّب على يد كهنة المصريين الذين سبروا غور العلوم لذاك العهد ولا نزال نرى في كل يوم عجباً من علومهم واسرارهم المكتومة وآدابهم وكفى بالتحنيط والنقش دليلا على سمو مداركهم، هذا ان ضربنا صفحاً عن الاهرام المنبئة بعظمتهم وعلو كعبهم بالمعارف وما يكشفه لنا الاثريون من مدهشات العقول، انه كان بليد العقل ينتظر الوحي ليهديه طريق العظمة ويأمره بقتل هذا ورجم ذاك الخ . فموسى صنيعة كهنة المصريين هو اعظم قائد مشترع عرفه التاريخ بعد حمورابي البابلي لذاك العهد في الشرق الادنى وعنه اخذ كثيرون وتأدبوا بادبه واستنوا سنته واستناروا بضوء معرفته، وهو ان قال بالنبوة الاّ لان الشعب كان منقاداً للوهم والغيب لا يعرف من معاني الحياة غير الملاذّ الجسدية والاكل والشرب يتصرف بشؤونه افراد حصروا فيهم العلوم وترفعوا عن معاشرة العامة الا في احوال خصوصية ليبقى الارهاب سائداً والعقل محدوداً مضروباً بينه وبين التفكير الحرستار القطع والحرمان من الطقوس المذهبية وفقد الحياة في بعض الاحيان، ونظرة الى اسفار موسى الخمسة المنسوبة اليه تبين لك مبلغ معارف ذلك الشعب وطريقة حياته وكيفية انقياده الى رؤسائه دون لماذا ولمَ

بلوى الدهور

يولد الانسان في هذه الحياة قسراً غير مختار او مشاور فان اسعده القدر اتى به الى بيئة راقية يرى ما في الوجود باسماً فيطرب كانه عصفور يغرّد في حقول الحب المخصبة من حوله اشجار دانية القطوف تنساب من تحتها مياه رقراقة عذبة ، فيبتسم للوجود ابتسام الزهرة لنور الشمس المحيية فينظر الى صفحة الايام من مرآة صقيلة تنعكس عن نفسانية طروبة فيصدح مع طيور الغاب بالحان المسرة والاسعاد ، على ان لايام الدهر مصائب ومحناً قد يبتلى في شيء منهما فيحمل من الكرب قليلا لا يلبث ذاك القليل ان ينقشع عن مرآة نفسه، لان من حوله يخففون من بلواه فينسى ما اصابه بين شروق الشمس ومغيبها او لان الحنان الذي يكتنفه ينسيه بعض الشيء او ان شئت فقل كل الشيء الذي المّ به فيضرب عما اصابه ويعود باسماً فما اسعده انسانا

«والذي نفسه بغير جمال لا يرى في الوجود شيئاً جميلا»

لا الذّ للانسان من ان يرى عطف من تصلهم به صلة رحم فيغارون عليه ويمهدون امامه سبل الحياة لانها تجارب — ومن كان اكبر سناً كان اكثر اختباراً — ويا لهناء من يسعده الحظ بام راقية تنيله من عطفها وحنانها معرفة بامور الدهر ومحنه وتوقفه على نزر من معاني الحياة وترتيب المعيشة وصفاء الذهن ولقد صدق حافظ اذ قال :

« الام مدرسة اذا هذّبتها هذّبت شعباً طيب الاعراق»

ولما كان حل مشكلة الوجود من المشاكل الصعبة التي لا يستهان بها بدليل ما فيه من معميات وعادات ترضي قوماً وتغضب الاخر ولا تماشي الغير وكان امر مجيء الانسان الى هذا العالم بغير استشارة الوالدين له والدافع لولادته اللذة ليس غير ، اضحى من الواجب على من اراد ان يوءسس عائلةان ينتخب له شريكة لحياته تدفعه اليها عاطفتا الحب الروحاني والخلق الرضي المرتكزين على شيء من العلم والمعرفة لا المنفعة المادية التي كثيراً ما يتعس بها الاولاد ويشقون فيجدون على الوجود وينظرون اليه نظرة المتشائمين التاعسين ، لا يلذّ لهم ما يرون من حسن لان تكوين نفسيتهم منذ بدء الانتاج لم توءسس على الحب والخلق الرضي المجردين عن كل غاية من متاع هذه الدنيا ، وانه ليوءلمني جدّ الايلام ان ارى القسم الاوفر من الوالدين الجاهلين لا يهمهم من امر اولادهم شيئاً فيوقعونهم في اشراك كان لهم بها نفع ما دون ابنائهم ، فان لم يروا ذلك النفع محققاً ينقلبون على ابنائهم يذيقونهم من آلام الحياة ما الله عالم به كأن الابن سلعة تباع وتشرى او اداة من ادوات المنزل يحلونها انى ارادوا ويكيفونها بالصيغة التي يرغبون وما علموا رعاهم الله ان في الانسان جوهراً خالداً لا يقوى على تكييفه الا من نفخه فيه نفساً حياً وشعلة متقدة منبعثة من العلو ، قد يحكم الانسان على الجسد ولكن الروح لا يحكم عليها الا الروح وحده قد يخضع الجسد مجبراً ويتسلط عليه من بيده الحل والربط واما الروح المتقدة في جسد كل ذي حياة تبقى في تمرّدها لا يقوى على تذليلها الا من نظّم ورتّب هذه الكائنات

لقد كانت كذبة الاجيال قديماً ان العبد وما يلد في ضمان سيده وان

الابن في ملك والديه فان فقد الاب فهو للام تعمل به متصرفة كيف شاءت ولكن الروح المقدسة الوثّابة والجيّاشه في الصدور نفرت من عقالها وابت ان تستمر على خضوعها ساكنة مكبوتة بعامل الظلم والقوة فكسرت تلك القيود وحطمتها على صخرة المطامع الاشعبية وصار من حق الابناء تكريم الوالدين واجلالهم ومن واجب الوالدين العطف على فلذة اكبادهم وتعليمهم وتهذيبهم وتأمين مستقبلهم والسعي الى مصلحتهم قبل كل مصلحة — والناس يولدون احراراً و يظلون احرارا ولا يفقدون حقهم بعد الميلاد وهم متساوون في الحقوق الطبيعية — وكان قبلا ان العائلة تقدر ان تبيع احد ابنائها اوان تضحي باحدهم قربانا وكم نرى من آباء وامهات يضحون بابنائهم لقاء فائدة لا تدوم اكثر من عشر او عشرين سنة ثم يذهبون مخلفين وراءهم انفساً تتعس وتشقى وتتألم متأوهة من كل ما امامهم ، لعمري لا اعلم لماذا لا يكون بعض الامهات والآباء اكثر حنانا وشفقة ومحبة لابنائهم لماذا لا ينظرون اليهم نظرة انسان من حقه ان يعيش سعيداً بهذه الدنيا دون الحاق ضرر بجسده او باحد ما؟ لماذا لا يقلبون صفحات ماضيهم و يأخذون عنه درساً وعبرة ولطالما ياتي الانسان من قبر وينتهي الى قبر فعليه ان يعمل الواجب نحو من اوجداه و يخضع لكل قانون عادل و يعمل ما يرى فيها صلاحا وخيراً عندما يشب عن الطوق و يسعى جهده الى ايجاد سعادة يرى فيها راحته وهناءه غير ملتفت لقول ذاك وسخرية ذلك والكون بما فيه رواية او مهزلة وناظم عقدها الله وابطالها نحن فان احسنا التمثيل سعدنا في هذه الايام المعدودة والا خسرنا ورحنا من حيث اتينا قسراً مكسوري القلب كأن لم يكن لوجودنا اثر .

خرافتا الاجيال

على الشواطئ ، على ضفاف الانهر ، بين الادغال قامت جماعات الانسان فتألفت العصبية بصلة الرحم ، فكانت العائلة والقبائل والزعامة ، تسلط الزعيم فرداً على المجموع عاملاً في رقابهم السوط والحد المسنون ، فخضع المجموع وحنى الهام علامة الذل والمسكنة ، وفتق له خياله بعد ان رأى ما رأى من جور ان الزعيم الاول هو طبقة فوق البشر فقدسه وعظّمه ورفعه الى اعلى ما تصور مرتبة ومقاماً فسادت الزعامة واستحكمت حلقاتها وباتت كانها العمد الراسية في صميم الارض فكتب فوقها آية المجد والسؤدد ، فقال من شاهد – هذا ظل الله على الارض – وما كان اكثر ظلال الله ، تعيش هانئة مطمئنة بانية عرشها على جماجم العبيد المستكينين ، الهادئين ، وهل كان بينهم من يجرؤ على ان يتطلع الى ابعد من انفه ولو قليلا او يتلفظ باسم صاحب السيادة والزعامة المبنية على قوى سواعدهم دون ان يشفعها بكلمة التعظيم والاجلال ؟ مشت السنون طاوية وراءها امما وشعوبا ، وظلّ الله باق بحكم الوراثة ولو انه ابله ضعيف العقل خاوي الوطاب ، صفر التفكير غرا بليدا احمق ، مشت امامه الجنود وجماعة العميان تذبّ عنه مضحية بارواحها لتسنمه مقاماً اعلى وتبسط سلطانه الى ابعد من بقعته . رأى كل ذلك فتعظم وتمجد وانتفخ انتفاخة الطاووس ، فصدق انه ظل الله على الارض او انه ابن الآلهة قذفت به السماء

ليرعى صنع يديها ، فكانت خرافة الاجيال الاولى التي سارت تتنقل على هام الرجال وعلى رقابهم تستنزف منهم الدماء طروبة فرحة بعزّها وسلطانها، شادت الحصون والقصور مبنية بسواعد العميان ، مجبولا طينها بدم القلب المتصبب عرقاً على الوجنات ، والزعيم يبسم للعبودية ابتسامة الزهرة لنور الصباح ، واما العبيد العميان فينظرون اليها نظرة احترام يطربون لابتسامته ويرتاحون لنظراته ، انتشرت خرافتا الأجيال فكانت الكذبة البشرية الاولى التي اوجدتها القوة متسترة بستار شفاف اطلقوا عليه اسم العدل والشفقة والرحمة وهي كلمات يتدرع بها القوي لينشب اظفاره في صم افئدة العبيد فلا يتململون ولا يبدون حراكا ، فاذا هم يعبدون سيدهم الملك واذا الملك يعبد اصناماً متحركة وكلاهما خرافة من خرافات الاجيال ، تمخضت الزعامة فوضعت ولداً هو الخرافة الثانية المجبولة بخلاصة الدهور واوهام اشباح الليل واخيلته ، ويقظات النهار وتنوع الفصول وتساقط الامطار والثلوج ، مطرزة بقصيف الصواعق ولمعان البروق ومن المولود ؟ هو البعل الاكبر المنظم ادوار ملحمته والدافع بها الى خادمه الامين ليمثلها على مسارح الحياة متخطياً الاجيال ، ماشياً على رؤوس العبيد ساخراً من انقيادهم ، مستولياً على ارواحهم ، محللا لنفسه ثمار اتعابهم ، عائشاً على جهالتهم يتقلب على الدمقس متوسداً النمارق اللينة الناعمة وهم كعميان ينقادون اليه صاغرين ، يحرقون امام بعل مطامعه بخورهم مقدمين اليه انفس ما عندهم قربانا ، تلك خرافتان سادتا العالم ، ولدتها الاجيال وما زال خيالها يتخطى العصور ، والثانية اشد واقوى فاخضعت الاولى اليها حافظة لها كرامة قدسية فتجادلا بميدان الاجيال على جماجم العبيد ، فاذا العبيد يقدسون اصناماً

متحركة ويخضعون للظلم بستار العدل ، واذا الزعيم والبعل الاكبر عبدا السماء والسماء لا تعرف عنهما خبرا ، مشت القوتان مشية وئيدة متخطية الاجيال متغذية بجهود العبيد، مغتسلة بصيب دمائهم المسفوكة تحت اقدام خرافتي الاجيال وما زالت البشرية تتبع خطواتهما تغط في نومها العميق مصغية لقول بوسيه:

ان الملوك هم وزراء الله ونوابه على الارض ، وليس عرش الملك عرش انسان بل هو عرش الله نفسه وذات الملك مقدسة فمن اذاه فقد دنس مقدساً واذا هي تستيقظ عن رؤيا جميلة من رؤى الليل بطلاها روسو وفولتير ، واذا نتيجة ما بذر هذان العظيمان من بذور الشك واليقين ينمو ويظهر في كلام ميرابو من له جلال اله المشتري وصوته : اذهب قل لاولئك الذين ارسلوك انا هنا بامر الشعب وهنا نحن باقون حتى نطرد بروؤس الحراب . وبعد ، اذا بخرافتي الاجيال تنهاران

حمل الهواء بذور تلك الجرأة المولدة عن الجرأة الاميركية الى بلاد الشرق وبعض اوربا ولكن لم تجرأ ارض من منبسط الفكر ان تزرع بذرة من تلك البذور حتى كانت الحرب الكونية واذا بتلك البذور الملقحة بافكار تولستوي تثمر في قلب روسية ومن ثم في المانيا وتركيا والصين واسبانيا وغيرها، تقلص ظل الله عن تلك البقاع ، واما الثانية فما زالت تهينم هينمة النسيم على رؤوس الازهار والعبيد امامها يستمدون البركات المتحولة الى مغناطيس يجذب بقية ما في الجيوب ، والعبيد تفرح بالابتسامة يشترونها بدم القلب المتصبب عرقاً على الجبين ، واصحاب السيادة على عروشهم يتطاحنون والعميان من حولهم يتلمسون طريق الهدى واين هذا من الوهم ، والوهم صنم كبير اقامه اصحاب

المطامع جسراً على جماجم العميان يتنقلون عليه ذهابا وايابا، يرقصون على قضقضة العظام وتنهدات الاجيال ،

او ليس الحاضر صورة لما مضى من غابر العصور ، او ليست اشباح الفجر ورؤى الليل باقية بقاء الابد في مخيلة الانسان تبدو لديه تارة خفيفة لطيفـة بنقاب نسجته النسمات من عبير زهر الربيع ، وطورا قاسية صلدة نسجته عواصف كانون من ابخرة ثلوج الرؤوس العالية الهازئة بالدهر وبابنائه

هذه اشباح الفجر ورؤى الليل تريك ما مضى من عبيد ظلّ الله على الارض ، وظل الله شخص تقمص ارادته بمستدر بركات السماء ، ومستدر بركات السماء عبد ينظر الى مجده المبني على انقاض الدهور فيطوب الدهر والاجيال وصانع الاجيال يرسل ماء الحياة النامية فيها بذور الفكر الدائر مع الارض حول الشمس ، يستقرىء الوجود ويستخلص منه دروس الغبطة والاسعاد ، طارحا رؤى الليل واصحابها في منامهم يغطون الى ان يطلع الفجر ويتبدد الوهم

مليكة الصحراء

او

اللادي استير استانهوب

المال والجمال اذا اجتمعا اهابا بصاحبهما الى النفور من حياة الاسر والاذعان الى عادات يراها عبئاً ثقيلاً عليه ان هو تمسك بها ودرج عليها ، وليس اصعب على الانسان من ان يرى نفسه في بحبوحة من العيش وعلى جانب من رواء الخلق والحسن يميل الى الحياة الحرة فيرى ذاته ضمن سور يعسر عليه ان يتملص من احدى نواحيه المستحكمة بابصار الناس الذين لا يفتأون ينظرون لصاحب الجد بمكبرات تريهم الامر الصغير عظيما فتبني عليه ما تشاء المخيلة وروح الحسد

بهذه المقدمة الصغيرة تدرك ايها القارىء شيئاً عن استير استانهوب التي سئمت حياة بلادها وهي الابنة الكريمة ذات العنصر الطيب وابت ان تبقى في انكلترا بين اهلها وذويها يرقبون حركاتها بعد ان طعنها الدهر طعنة نجلاء بحبها احد قواد انكلترا وموت عمها المستر بيت فضاقت عليها الارض بما رحبت وجال بخاطرها فكرة المهاجرة ، فامّت اوربا تحمل كنوزها الثمينة ووصيفاتها وخدمها ولكن الطبيعة التي لم ترحمها بحبيبها ابت عليها ان تسري عنها حزنها والامها فسلطت على شراعها اعصاراً في طريقها الى القسطنطينية اغرق كنوزها وبعض من معها في خليج مكري تجاه جزيرة رودس وبتعب شديد

انقذت من الغرق واتي بها الى الجزيرة المذكورة وهناك تعرّف اليها قنصل دولة انكلترا فاعادها الى بلادها تحمل بين جنبيها الما وحزنا وباعت بعض ما تبقّى عندها من مجوهرات وعقار وعقدت لواء مركبها الى سوريا ذلك البلد الطيب الذي يهواه كل غربي وتطيب له سكناه والله اعلم بالسرائر

وصلت الى اللاذقيه وجابت تخومها مدة تعلمت في اثنائها شيئاً من العربية وتعرّفت الى علية القوم هناك فسهلوا لها طريق سياحتها الى البلاد العربية وما بين النهرين ولم تبق بلباسها بل عمدت الى ثياب اهل البلاد فارتدتها — وهذه مزية عرفناها بفانديك وغيره من الاجانب — بعد ان درست العادات وعملت بها والانكليز مطبوعون على حب التمسك بالعادات ثم سارت في طريقها تحمل الهدايا الثمينة الى رؤساء القبائل والزعماء فزارت اورشليم والشام وحلب وحمص وبعلبك وتدمر وفي هذه المدينة القديمة ضربت خيامها ومن حولها البدو الرحل عبدوا بشخصها الجمال الفتان فكأنما سحرتهم بحسن قوامها ورواء منظرها وريّان شبابها فصوبت اليهم سهاما يشق القلوب قبل الجلود وصارت بينهم السيدة الآمرة الناهية يعملون باشارتها ويخضعون لارادتها — ودولة الجمال اشد واقوى من دولة المدفع — فنادوا بها مليكة ، تدمر ومهدت للغربيين سبل السياحة في خرائب بعلبك وتدمر بعد ان ضربت عليهم جزية تتقاضاها منهم فتؤمن لهم ارتياد الانحاء هانئين مطمئنين

وذاع ان بعض القبائل العربية احبت بها ذلك الجمال الخلاّب والجسم البض النّاعم فعزم على اختطافها من بين رجالها فاتصل بها الامر وقامت مع اتباعها تنهب الارض على ظهر جواد عربي مطهم الى دمشق حيث كانت بمأمن

من الاعداء تحت رعايه والي المدينة الذي احلها على الرحب والسعه لان الباب العالي « ديوان السلطان » اوصاه بها خيرا

وللحياة الترف والامتاع حدّ فبعد حياة طويلة مملوءة باهوال الصحراء ومحاسن المروج والتمتع بجمال السهول والبطاح ارادت ان تلجأ الى الهدوء والسكينة فامّت مكانا في جبل لبنان واتخذت منه معقلا حصيناً وذلك في شمالي قرية جون ، الى القرب من صيدا دير قديم على رأس رابية سلمه اليها والي عكا عبدالله باشا الذي كان يظهر لها احتراماً عظيما ويقدم لها خدمات جليلة معتنياً براحتها فشادت في قلب تلك البقعة الجميلة قصراً ضمن سور يشبه قلاع القرون الوسطى وزرعت خمائل كانها جنة الله في ارضه تجري فيها مياه مطهرة عذبة تقر بها عين الناظر وتثلج الصدر ، واقامت من حولها خدماً وحشما واهل تلك الناحية يقدمون لها الاحترام والاجلال فرغدت في اواخر ايامها ولعل حياة العزلة اوحت اليها ذكريات ماضية فناجت حبيبها بوحدتها وسرت عنها بعض آلامها وكربها

ولا بد للذاهب الى دير المخلص العامر عن طريق صيدا من ان يمر بقصبة جون والى الجهة الشمالية منها يرى بناء ابيض عليه قصر او دير السيدة وهناك في ذلك المكان الساكن المطمئن قبر رخامي نقش عليه « هنا ترقد السيدة استير استانهوب » . هذه هي مليكة الصحراء او تدمر من ارعب اسمها الغرب فظن ان لسكناها هذه الديار سبباً سياسياً غير ان الايام اظهرت غير الواقع ودلت على ان الحب هو الذي كان السبب في هجرة اللادي ستانهوب وارتياحها الى الحياة التنسكية

الاقدمون وخلود النفس

او

الايمان بالحياة الآتية

لقد ذهب غير واحد من الفلاسفة الى انكار الخلود وضربوا لذلك امثالا وبنوا قضايا وقضايا ، وليس من شأني ان ابحث القضية من حيث النفي او الاثبات لان دون ذلك خرط القتاد ومسلكا وعراً كثير التشعبات ، لا يمكن ان نبني قضية حتى نرى اخرى تفسدها وتقيم عليها الحجة ، وما انا الا ناقل على صفحات هذا الكتاب بعض ما عثرت عليه اثناء مطالعتي او بعض ما بقي في الذاكرة ، عن فكرة الخلود عند الاقدمين ، مما يدل على ان في الانسان شيئاً يدفعه بخياله الى حب البقاء والاستئثار بالوجود حتى بعد فناء الجسد والناظر في تاريخ الاديان يرى انها كلها ترمي الى غاية واحدة وهي بقاء النفس خالدة بعد مفارقتها الجسد ولقد اختلف بامر مقرها فمنهم من ذهب الى انها تتقمص وهذا الاعتقاد مشعب ، فعند قوم ان النفس تنتقل من جسد انسان الى جسد انسان مثله ولا تتجاوزه وعند آخرين انها تنتقل من انسان الى حيوان حتى تتطهر في مدة معلومة ثم تتحد مع الروح الاعلى مصدرها الاول

لقد اعتقد قدماء المصريين ان الشمس الههم الاعظم واطلقوا عليها اسم را « Ra » وعنها اتخذوا عقيدة الخلود والقيامة لانها تتوارى كل يوم ثم تظهر

فقالوا كذلك هي نفس الانسان واما اعتقادهم بالبعث والنشور فظاهر من تحريهم التحنيط لحفظ اجسادهم لانهم كانوا يزعمون ان النفس ترجع الى الجسد كما كان على الارض ولا بد لكل نفس من ادانة في مجلس الآلهة بعد الموت فمن تبرّر دخل في معاشرة زمرة الآلهة ينادمهم ومن كان اثيماً في هذا العالم هلكت نفسه وعادت الى بعض اجساد الحيوانات بالتناسخ لتؤدي كفارة عما اجترحت

وذكر المؤرخ الاميركي فليب فانس مير في كتابه التاريخ العام الصفحة الرابعة والعشرين « ان اعتقاد البابليين المتعلق بالآخرة مضاد لاعتقاد المصريين مضادة غريبة وقلما افتكروا بالحياة الثانية ولا عجب من ذلك لانهم كانوا يخالون الحياة بعد الموت من اشد المحزنات واعظم المكدرات وسموا منزل الموتى « ارالو » Aralow ارض الظلام التي لا رجوع منها وهي عندهم كورة مظلمة تحت الارض حيث الخفافيش ومثار الغبار والنفوس تتعس في اماكنها وطعامها الغبار والوحل ، وكان عندهم نوع من الفردوس « السيوم » يشبه فردوس اليونان Elysée لذوي الاعمال العظيمة والتقوى البالغة ، وقد قال ايضاً ان العبرانيين اقتبسوا الاعتقاد بالحياة المستقبلة من البابليين و « شيول » Sheawol كلمة بابلية معناها الارض التي لا يرجع الانسان منها وهي اقليم تحت الارض واسع مظلم ومكان رهيب محزن فيه الحقير والعظيم ولا فرق بين الاخيار والاشرار ونصيب كل الهابطين الى الهاوية واحد واما الصالح فينال جزاءه طول العمر والنجاح على هذه الارض ، وعلى مرور الزمن بدل العبرانيون من تصور البابليين المظلم في شان الحياة الاتية رايا يشابه راي قدماء المصريين »

وغاية النفس عند البراهمة الوصول الى الاتحاد ببرهمة « الكائن قبل

الوجود » بتجردها من الهيولى فالنفوس الطاهرة تنال هذه الغاية، واما الشريرة فتسقط في « ناراكا » لتعذب مئة سنة من سني برهمة - واليوم البرهمي يوازي ثمانية مليارات وستمئة وخمسين مليون سنة شمسية — والنفوس التي كانت وسطاً بين الخير والشر يصير تطهيرها بتقمصها بجسم حيوان او انسان، واعتقد الفرس ان الحياة معركة غايتها انتصار الخير على الشر

ولذلك كان اساس الاخلاق عندهم ان يكون الانسان طاهراً مثل « ارموزدا Ahuramazda » اله الخير وطهارة الفكر تجعل النفس نيرة مضيئة واداتها صدق القول والامتناع عن الكذب ، والنفس بعد الموت تحاكم وتنال ما قسم لها في الحياة فاما ثواب واما عقاب ، وان شعب مادي Mades اعتقدوا الخلود والثواب والعقاب بعد الموت فان الصالحين على ما يقولون يستقبلهم الروح الصالح فيدخلون الديار السعيدة واما الاشرار فيطرحون الى الهاوية، مملكة الروح الشرير ويأكلون الاطعمة السامة . ولا ارى بأساً من ايراد بعض تقاليد الكلدانيين المتعلقة بالخليقة نقلاً عن التاريخ القديم لهارفي بورتر « صفحة ٤٥ وما يذكره مستفاد من اخبار بيروسس المؤرخ الكلداني ق ٠م ، قال :

« انه في البدء لم يكن الا ماء وظلام وهناك تولد نوع من الوحوش الغريبة والكائنات العجيبة فمنها شبه اناس من ذوي اجنحة ووجهين وراسين والبعض لهم قرون والبعض لهم ارجل كالفرس وما اشبه وكانت اسماك وحيات وزحافات مخلوطة البنية او الصورة فالبعض لها خواص الآخر وكانت تتسلط امراة على هذه الكائنات جميعها ثم جاء بيل وشق المرأة شطرين وجعل من الشطر الواحد سماء ومن الشطر الآخر ارضاً واهلك الحيوانات التي فيها ثم شق

الظلام ايضاً وفصل بين السماء والارض ورتب العالم ثم امر واحداً من الالهة ان يقطع رأسه ويخلط دمه مع تراب الارض ويصنع الانسان والحيوان لخلق الانسان ذا نفس حية وكان مشتركا في الحكمة الالهية وصنع بيل الشمس ايضاً والقمر والسيارات ٠

من هنا يتبين لنا ان فكرة خلود النفس ليست هي حديثة بل قديمة نشأت يوم نشأ الانسان وهذا ما يدل على ان في كل ذي حياة جوهراً ولاسيما الانسان، يدفع به الى الاعتقاد بخلود النفس وهو ما ينهض به الى الخيال والتصورات التي قد تتراءى للانسان المفكر الحكيم ويأخذه العياء عن الافصاح، اما لعدم وجود كلمات تؤدي المعنى المراد واما لعدم مقدرته على تصوير المعاني على القرطاس بقالب جليّ واضح يعرب به عما تهيب به النفس الى تصوره ، وما يظهر جلياً ان فكرة الخلود قد ادت خدمات جليلة للعالم اعظمها الرأفة وحب الخير ومساعدة البائسين وتخفيف آلام المصابين بمرض او عوز او ضيق والعطف على الضعيف الخ وما من دين قديم او حديث الا اعتقد خلود النفس وحسابها عن افعالها ، وعقيدة الخلود قانون ادبي يخفف من وطأة ارتكاب الموبقات ويؤنب ضمير المجرم ، لان الخوف من المستقبل المظلم يجعل في القلب رهبة وحنواً ويلين العريكة

على انقاض الماضي

بين الامس واليوم

فلك دوار ودهور تكرّ وتفرّ وساعات تطوى وراء حجب العصور من ضمنه جيل من الناس هذا يذهب فيطوى وذاك يجيء فيسقط في يده ، وهكذا دواليك والزمن كما هو والحياة هي هي فلا تغيير ولا تبديل بها وانما افكار تتطور واعتقادات تتبدل من صورة الى اخرى ، والنواة واحدة اوجدها الجيل والحاجة وسوف تبقى ولكن بغير لبوسها الحاضر ، فكأن طبيعة الزمن والمكان وكأن الانسان ابى ان يبقى جامداً على حالته حتى في معتقده فاخذ يجد ويجتهد قادحا زناد الفكر دارساً منقباً ليهتدي الى اعتقاد اجل وارفع مما هو عليه فشرع يختبر ويبني نظريات واحداثا كثيرة وهو يشكّ طوراً ويؤمن حيناً وبتوالي الزمن وكرور الايام توصل الى ضالته المنشودة فظن انها الصيد كل الصيد فقبع في مكانه يلقي على حفدته اعتقاداته وهؤلاء يزيدون وينقصون ويبدلون على توالي الايام حتى صار ما يعتقدون ديناً موحى به .

ذكرت هذا وانا في سيارة تقلني الى شمالي لبنان فوصلت بي نهر ابراهيم وهناك طرأ عليها ما اوقفها عن الجري فنزلت افرج النفس واعود بالذاكرة الى قرون مضت ، جلست الى ضفة النهر وتأملت مياهه المنسابة وهي خلاصة اجيال واجيال وفي كل قطرة منها ابخرة حيوان وجماد ونبات طويت في جوف الارض التي حللّت اجسام كل منها الى عمل اعدته هي .

ذكرت في تلك اللحظة الفينيقيين الذين كانوا يأتون ويقيمون فرائض العبادة على ضفافه ، ذكرت ذلك الجيل من الناس وقلت ألم يكن بينهم كافر غير معتقد او مشكك بصحة ما يقيمون من الطقوس والعبادات ، قادتني الذاكرة الى نساء الهيكل – راهباته – من كن يقمن عبادة عشتروث معشوقة ايذونيس حسب المعتقد بالبوح والاستمتاع بالملذات الجسدية ، وكان الاعتقاد الشائع في ذلك الحين ان ايذونيس الفتى المعشوق بينا هو يتصيد في الغاب اتى عليه خنزير بريّ ونال منه مقتلا فارداه – ولذا كان قتل الخنزير محللا لديهم واما اكله فمحرم – وسال دم الفتى في النهر فصبغ المياه وكان الاعتقاد ان النهر يحزن في كل سنة ايام الشتاء فيصبغ بالدم حداداً – وسببه ان مياه السيول المتساقطة شتاء من اعالي الجبال تجرف في طريقها اتربة تعكر مياه النهر – فيعتقدون ان دم ايذونيس يفيض في النهر في كل سنة فياتي اهل جبيل النهر في يوم مخصوص يندبون الفتى المعشوق ويحزنون عليه وفي ايام الربيع الجميلة تفتر الطبيعة عن ثغر باسم فيروق النهر وتصفو مياهه فيزعمون ان ايذونيس قد قام من الموت فيفرح الجميع ويطربون ويحجون الى النهر يطلبون شفاعة الفتى معشوق عشتروث ، وانا نرى رسمه منقوشاً على صخرة في الغينة من اعمال كسروان مقتولا ورسمه في المشنقة قرب جبيل قائماً من الموت ، عند هذه الذكرى وقفت اتأمل الماضي السحيق وما كان فيه من الاعتقادات فزعمتني احد اولئك القوم واني من جملتهم وقلت اكان يمكنني ان اكفر او ان اجحد ايذونيس بذلك الاعتقاد ، لو كنت آنذاك » كلا ، لاني كنت مجبرا ان اساير القوم بمثل مسيرهم واعتقد اعتقادهم لاني ابن جيلهم وواحد منهم وان

فعلت عكس ذلك فانا لا شك منبوذ من بين ظهرانيهم يقرن اسمي بالكفر والسبة لاني على غير معتقد القوم

وفي الحال انتقل بي الفكر الى الزمن اليوناني والمصري والاشوري والفارسي والارمني والروماني وما كان في كل عصر منها من اعتقاد سائد . فقلت ان لكل عصر فكرة واعتقادا اوجدها الزمن وايدتهما حالة القوم آنذاك وهكذا سوف يكون من امرنا في مستقبل الزمن تمر الايام وتطوى وتتبدل الافكار وتسير ناهبة الزمن نهباً تبقي على شيء من القديم وتنهض به الى اعتقاد تفتقه له فكرة العصر ، فكأن الانسان ابى على نفسه ان تكون جامدة حتى فيما يخص الخيال والذات العلوية فسبحان من وجد واوجد ولا نعلم من امر وجودنا شيئاً ، وما نحن الا ابناء الزمن نماشيه حبا بالراحة والبقاء حفظاً للكيان والمعاش فكأن الصانع المبدع كتب على الانسان الحيرة فلا هو يعرفنا حقيقة ولا نحن نعلم من امره ومن امر مصيرنا شيئاً ، فعلينا ان نمشي ونخضع كما مشى وخضع من قبلنا .

....

رهبة الموت ، فلسفة الحياة

الحياة العوبة يكشفها الموت

سليمان الحكيم

في نشيد الانشاد

هو رجل من رجال التوراة، طبقت شهرته الآفاق وسارت حكمته في المشرقين فلم يبق احد الا سمع عنه طرفاً وروى احاديثه، بينها الصحيح الجيد والمختلق الركيك وها انا ادرس الرجل لا كنبي من الانبياء بل كشخص له ادبه وحكمه ورايه في الحياة، وابـدأ بنشيد الانشاد وارجيء البحث بالجامعة والامثال الى وقت آخر لما فيهما من آداب صحيحة وحكم عالية تكفيان الرجل خلوداً

اخترت نشيد الانشاد لانني ازعم انه كتبه وهو في ابان شبابه وعنفوان صباه فجاء وصفا حقيقيا عما يجول في جمع قلبه من العواطف وفي ثنيات دماغه من الوصف الرائق والخيال القوي والتشابيه والاستعارات، ولا بد ايها القاريء انك تريد ان تعرف من هو سليمان:

هو سليمان بن داود الملك من امراة اوريا الحثي بعض اشخاص التوراة ابتدأ ملكه على امبراطوريه اسرائيل في السنة « ٩٩٣ — ٩٥٣ ق ٠ م » ولم يكن كابيه رجل حرب بل كان محامياً ومرقياً للصناعة والتجارة والعلم وله بلاط عظيم وجيوش منظمة وروي أنه كان احكم ملوك الشرق بلا منازع وشاد في اورشليم هيكلا عظيما اتماما لوصية داود ابيه وكانت له صداقـة مع حيرام ملك صور وهو الذي ساعـده في اشادة الهيكل وقد بعث اليه بمهرة المهندسين والبنائين وساعده على نقل خشب الارز من لبنان .

انني اتمثل الملك سليمان بسحنته الاسرائيلية الشرقية رجلا اسمر اللون ، ادعج العينين براقهما ، كبير الشفة العليا مستدير الوجه الا قليلا عريض الكتفين ، عريض الجبهة ، كله شمم واباء معتدل القامة تنبعث من عينيه شعلة كلها حب والم وشعور ، امام هذه الهيئة قف ايها القارىء قليلا واسمع وصفه لمن احبتها نفسه بشعر هو السحر الحلال « ليقبلني بقبلات فمه لان حبك اطيب من الخمر ، لرائحة ادهانك الطيبة اسمك دهن مهراق » ثم انصت اليه يقول « انا سوداء وجميلة يا بنات اورشليم كخيام قيدار ، كشقق سليمان لا تنظرن الي لكوني سوداء لان الشمس قد لوحتني ، بنو امي غضبوا علي جعلوني ناطورة الكروم ، اما كرمي فلم انطره » هذه عروس سليمان التي احبها والتي لم يرتو منها حبا بعد وكأن حبها ملك عليه عقله فراح يتغزل بها ويتشبب باوصافها وكل ما كتب هو من جيد الشعر والوصف الرائق والتشبيه الحسن ، وهو ما يدلنا على سعة خيال سليمان وجودة نظمه وسهولة انشائه وقد قيل الانشاء هو الرجل — وانه ليذوب رقة وعاطفة بنشيده وانه ليعطيك صورة مصغرة عن نفسانيته السابحة في عالم الفكر والخيال ويثير شعورك ويعظك بجامعته وامثاله ، فانك لا تقرأه حتى يخيل لك انك تسبح في عالم من الاخيلة مملوء بالعاطفة الحية من حولك عذارى ينظرن اليك نظرة كلها معنى الوداد والعطف والحنو يتمنين ان يقترين منك ويطارحنك ما بذات صدورهن فترشف معهن سلافة الحب ،

وانك لتحس بشيء يجري في مخيلتك ويزيد ما بك من شجو وما في ضميرك من حب هوذا ينشدك في بعض مقاطع من النشيد الاول . « ان لم تعرفي ايتها الجميلة بين النساء فاخرجي على اثار الغنم وارعي جداءك عندمسا كن

الرعاة ، لقد شبهتك يا حبيبتي بفرس من مركبات فرعون ، ما اجمل خديك بسموط وعنقك بقلائد ، نصنع لك سلاسل من ذهب مع جمان من فضة ·

ما دام الملك في مجلسه افاح ناردبني رائحته ، صرة المر حبيبي · لي بين ثديي يبيت ، طاقة فاغية حبيبي لي في كروم عين جدي ·

ها انت جميلة يا حبيبتي ها انت جميله ، عيناك حمامتان ها انت جميل يا حبيبي وحلو وسريرنا اخضر ، جوائز بيتنا ارز وروافدنا سرو »

هذه حبية سليمان فهو يشبهها كما رابت بفرس بمركبات فرعون ، وانظر ماذا تشتهي وماذا ترغب حبيبته في هذا المقطع ايضاً « كالسوسنة بين الشوك كذلك حبيبتي بين البنات — كالتفاح بين شجر الوعر كذلك حبيبي بين البنين تحت ظله اشتهيت ان اجلس وثمرته حلوة لحلقي · ادخلني الى بيت الخمر وعلمه فوقي محبة ، اسندوني باقراص الزبيب ، انعشوني بالتفاح فاني مريضة حباً شماله تحت راسي ويمينه تعانقني » الى ان تقول اخيراً انه ات من بعيديطفر ويقفز على الجبال وعلى التلال وانه وراء الحائط يتطلع من الكوى بوصوص من الشبابيك فيجيبها حبيبها قائلا « قومي يا حبيبتى يا جميلتي وتعالي لان الشتاء قد مضى والمطر فرّ وزال » وانا ازاء هذا النشيد لا اصدق ان سليمان يتغزل بشخص وهمي او باحد ما في عالم الغيب يتمثله فيغرق في وصفه وهو الملك المكتنف بالعذارى والوصيفات ، كيف تريد يا قارئي ان لا اصدق ما ارتابت وفي النشيد الثالث نسمعه

يقول « في الليل على فراشي طابت من تحبه نفسي طلبتـه فما وجدته اني اقوم واطوف في المدينة في الاسواق وفي الشوارع اطلب من تحبه نفسي طلبته

فما وجدته » الى ان يقول بعد سؤاله العسس الطائف ليلا وبعد ان جاوزهم قليلا انه وجد من يحب ولم يرخه حتى ادخله بيت امه وحجرة من حبلت به، ويقول ان سليمان عمل تخته من خشب لبنان اعمدته من فضة وروافده من ذهب ومقعده من ارجوان ووسطه مرصوفاً محبة من بنات اورشلم ·

فما هي المحبة التي ترصف بها بنات اورشليم تخت سليمان ؟ ومعلوم ان من فضلة القلب يتكلم اللسان ومن احب شيئاً اكثر من ذكره، ايمكن احد ما ان يتغزل ويصف ويأتي بالبدائع البدع من تشابيه واستعارات وكنايات لا تخطر على بال احد، ما لم يكن قد تذوق لذة الحب وعرفه، انظر الى هذا الوصف اللذيذ وقل ارايت قط وصفاً اجمل منه « ها انت جميلة يا حبيبتي، ها انت جميلة عيناك حمامتان من تحت نقابك، شعرك كقطيع معز رابض على جبل جلعاد اسنانك كقطيع الجزائز الصادرة من الغسل اللواتي كل واحدة متئم ليس فيهن عقيم · شفتاك كسلكة من القرمز وفمك حلو · خدك كفلقة رمانة تحت نقابك · عنقك كبرج داود المبني للاسلحة، الف مجن معلق عليه كلها اتراس الجبابرة · ثدياك كخشفتي ظبية توامين يرعيان بين السوسن · الى ان يفيح النهار وتنهزم الظلال اذهب الى جبل المر والى تل اللبان كلك جميل يا حبيبتي ليس فيك عيبة الخ « راجع الصحاح الرابع من نشيد الانشاد »

اليس في هذا الوصف البديع والكلمات المنتخبة وذلك التصريح والتشابيه الرائعة ما ينبيء بشدة تدله سليمان وحبه لشخص حقيقي يصفه اكمل وصف ليس للوهم فيه معنى · وعندي ان الملك سليمان ذلك الملك الحساس الذائب رقة وعاطفة لم يكن كعامة الناس يتشبب بعروس وهمية ليس لها من اثر الا في

مخيلته وهو الملك العظيم الشان ذو الطول والسلطان من تأتمر بامره مملكة لها مركزها وعظمتها في ذلك الوقت · ولا من ينكر انه كان حبياً لكثيرات وانه خبر الحياة ودرسها وعرف ان يتلذذ بها فجمع من حوله كل ما من شانه ان يجلب المسرات والافراح ، وقد رمى عرض الحائط بكل ما من شانه ان يأتيه بالمكدرات ولنا شاهد عدل على ذلك ما جاء في الجامعة والامثال ولسوف يأتي الكلام عليهما

وما يتضح لنا ان سليمان قد عنى بنشيده شخصا حقيقياً احبه ، قوله حبيبي مدّ يده من الكوة فانّت عليه احشائي » وما ادراك ما انين الاحشاء ، واليك ما يقول « حبيبي ابيض واحمر معلم بين ربوة راسه ذهب ابريز قصصه مسترسلة حالكة كالغراب ، عيناه كالحمام على مجاري المياه مغسولتا باللبن ، جالستان في وقبيهما · خداه كخميلة الطيب واتلام رياحين ذكية شفتاه سوسن تقطران مرا مائعاً · يداه حلقتان من ذهب مرصعتان بالزبرجد ، بطنه عاج ابيض مغلف بالياقوت الازرق ساقاه عمودا رخام موءسسان على قاعدتين من ابريز طلعته كلبنان فتى كالارز حلقه حلاوة وكله مشتهيات هذا حبيبي وهذا خليلي يا بنات اورشليم »

ان سليمان كان كبقية ملوك ذلك العصر -- وما عهد عبد الحميد وغيره عنا ببعيد -- يكثر من السراري ومن بينهن احب سليمان واحدة فتدله بها وتدلهت به فاوحت اليه بما فيها من جمال ولين اعطاف وامتشاق قد وليونة جسم بنشيده ودليلنا على ذلك قوله في الصحاح السادس العدد الثامن « ستون ملكة وثمانون سرية وعذارى بلا عدد واحده هي حمامتي كاملتي الوحيدة لامها

هي عقيلة والدتها هي رأتها البنات فطوبنها والملكات والسراري فمدحنها »

احب عقيلة امها ففاضت قريحته بما يجول في صمّ ضميره فاحسن الوصف واجاد الكنايات والاستعارات بحبيبته واعطانا صورة حيّة عنها ومع هذا يريد البعض ان يلزمنا بتصديق انه كان يشدو بجمال الكنيسة المقبلة . لعمري انكذب انفسنا ونسدل غشاوة بيننا وبين العقل المفكر ونقر ذلك النفر على رأيه ونقول ان سليمان قد عنى بذلك مجد الكنيسة المستقبلة ولم يقصد فتاة محبوبة ؟ كيف يمكن ذلك وهو القائل ايضاً في الصحاح السابع « ما اجمل رجليك بالنعلين يا بنت الكريم دوائر فخذيك مثل الحلى صنعة يدي صناع سرتك كاس مدورة لا يعوزها شراب ممزوج . بطنك صبرة حنطة مسيجة بالسوسن ، ثدياك كخشفتين توأمي ظبية . عنقك كبرج من عاج . عيناك كالبرك في حشبون عند باب بيت ربيم » الى ان يقول ما اجملك واحلاك ايتها الحبيبة باللذات قامتك هذه شبيهة بالنخلة وثدياك بالعناقيد . قلت اني اصعد الى النخلة وامسك بعذوقها وتكون ثدياك كعناقيد الكرم ورائحة انفك كالتفاح وحنكك كاجود الخمر . . . . . انا لحبيبي والي اشتياقه الخ اي دخل للثدي والبطن والفخذ الخ ان لم تكن لشخص محبوب مقصود

هوذا سليمان قد كتب لنا بالادب المكشوف منذ امد فهو في طليعة حاملي لوائه ومؤسسي هذه المدرسة التي يتزاحم عليها الكثيرون اليوم ويرون صدوداً ومقتاً من جماعة المتأدبين المحافظين . وما اتصل الينا عن سليمان هو قليل من كثير مما كتبه لان من ينظم مثل هذه الاناشيد لا نحكم عليه انه كان مقلاً او مكثراً بل نقول انه كان وسطاً بين الاثنين ولعل جملة ما كتب

قد ذهب عند انقسام المملكة الى قسمين مملكة يهوذا واسرائيل واصبحت عرضة لهجمات البابليين ٠ ومسك ختام ما يقول سليمان في الصحاح الثامن العدد السابع

«مياه كثيرة لا تستطيع ان تطفيء المحبة ، والسيول لا تغمرها ، ان اعطى الانسان كل ثروة بيته بدل المحبة تحتقر احتقاراً ٠

سليمان في امثاله

الرجل العظيم الخالد بخلود الدهر هو من اختبر الحياة و بلا الايام وجرب الجيد والرديء وجاء يلقي على ابناء الاجيال نتيجة ما اختبر وما جرّب ، في سنين ، بساعة واحدة فيخيل لك انك كنت معه وانك تحذو حذوه وانت وراء مكتبك بينك و بينه عدّ سنين اواجيال

لا نعدّ من دوخ الممالك وفتح الفتح المبين ، وهدم و بني وقتل وطغى وعدل عظيما خالداً ، لان عظمته تندرس باندراس جيله ،وخلوده يذهب بذهاب حياته ولا عبرة بمن احتفظ التاريخ بذكرهم من امثال اسكندر وهنيبال ونابوليون واحزابهم فلقد كان كل منهم ذا نزعة ومطامع وجرأة وفروسية ، خلدوا بالطعن والضرب والهدم والبناء واما الاديب فخلوده خلود الآلهة على عروشها بما يأتيه من ضروب العلوم التي تفيد البشرية وتنهض بها الى معارج الرقيّ والفلاح ، فالعالم بعلمه والاديب بادبه والفيلسوف بتفكيره المثمر المنتج بهذه المقدمة الصغيرة ، ادخل بك ايها القاريء الى ثاني مقدس من مقادس

سليمان الحكيم بعد ان عرفت شيئاً عن تشببه وغزله في نشيد الانشاد ، والآن تعال ندرس امثاله التي هي عصير دماغ ناضج ، قد انخرط في الحياة وتذوقها فعاد منها ولديه جعبة اختبارات تصح ان تكون دستور الشاب في بدء حياته وقانونا ادبياً يشق به طريقاً الى مستقبله

راينا سليمان فيما مضى شاباً شغوفاً بالنساء يطلب اللذة بتفاحة حواء شأن كل ذي حياة خاضع للناموس الطبيعي دون لماذا ولمَ ، والآن نراه شيخاً جليلا ينبعث الوقار من بين عينيه ومن هيبته المغتسلة بنور الفجر ، المتنشفة بجيوش الدجى يقول لنا « لمعرفة حكمة وادب ، لادراك اقوال الفهم ، لقبول تأديب المعرفة والعدل والاستقامة » الى ان يقول « الحكمة تنادي في الخارج في الشوارع تعطي صوتها تدعو في رؤوس الاسواق في مداخل الابواب ، في المدينة تبدي كلامها قائلة ايها الجهال تحبون الجهل والمستهزؤون يسرون بالاستهزاء والحمقى يبغضون العلم ، ارجعوا عند توبيخي هاءنذا افيض لكم روحي اعلمكم كلماتي » ان سليمان ينادي الجهلة والمستهزئين ويقول لهم الا ارعووا وتفهموا الحياة واسلكوا في طريق الحق وابذلوا في طلب المعرفة جهودكم لانها تقوم سبلكم وتقودكم الى الحياة الرغيدة الطيبة ، الحكمة تنادي «رفضتم كل مشورتي ولم ترضوا توبيخي فانا ايضاً اضحك عند بليتكم اشمت عند مجيء خوفكم الخ » من يدرس امثال سليمان وجامعته لا بدّ من ان يخرج منهما وفيه تفكير جديد بالحياة لما فيهما من آداب راقية ومواعظ شافية تهيب بالنفس الى الترفع عن الدنايا وتبعث فيها قبس اجتهاد ونشاط في سبيل المعرفة وهذه خير ما يجتنيها المرء في حياته لانه وهو الانسان العاقل عليه ان يسعى جهده لفهم

شيء من اسرار هذا الكون الذي يكتنفه و يعيش فيه ، ماذا يقول لناسليمان في الصحاح الرابع من الامثال وهو خير ما تعظ به الاباء الابناء في هذا العصر « اسمعوا ايها البنون تاديب الاب واصغوا لاجل معرفة الفهم ، لاني اعطيكم تعليما صالحاً ، فلا تتركوا شريعتي فاني كنت ابناً لابي غضاًووحيداً عند امي وكان يربيني ويقول لي ليضبط قلبك كلامي · احفظ وصاياي فتحيا · اقتن الحكمة ، اقتن الفهم ، لا تنس لا تعرض عن كلمات فمي ، لا تتركها فتحفظك ، احببها فتصونك ، الحكمة هي الرأس فاقتن الحكمة وبكل مقتناك اقتن الفهم ، ارفعها فتعليك ، تمجدك اذا اعتنقتها · تعطي راسك اكليل نعمة تاج جمال تمنحك »

لا اعلم ماذا اختار من امثال سليمان و كلها جيد حسن فلا نقدر ان نقدم صحاحا على آخر لان كلها منتقاة منتخبة ليس فيها ما يرغب عنه ، بل كلما قرأت صحاحا رأيت ما يدفعك الى المزيد ، فتقرأ السفر وانت لا تشعر اذ كنت تقرأ قصة ام حكمة خالدة ام عظة ، لانه قد جمع بين الادب والحكمة — ببراعة الترجمة — بالفاظ ليس فيها عجمة او كراهة فهي السهل الممتنع والانشاء الراقي · اسمعه يقول « قل للحكمة انت اختي وادع الفهم ذا قرابة لتحفظك من المرأة الاجنبية من الغريبة الملقة بكلامها » واخيراً يصف غلاماً غراً بين الجهال تناديه زانية خبيثة القلب فيعرج عليها و بعد ان تخدعه بكلامها يقول انه قد ذهب وراءها لوقته كثور يذهب الى الذبح او كالغبي الى قيد القصاص حتى يشق سهم كبده كطير يسرع الى الفخ ولا يدري انه لنفسه

وهاك بعض منتخبات من امثاله « الخصام انما يصير بالكبرياء ومع المتشاورين

حكمة ، تأتي الكبرياء فيأتي الهوان ، القمة يابسة ومعها سلامة خير من بيت ملآن ذبائح مع خصام . الابن الجاهل غم لابيه ومرارة للتي ولدته . المعتزل يطلب شهوته و بكل مشورة يغتاظ . الجاهل لا يسر بالفهم بل بكشف قلبه . الخمر مستهزئة ، المسكر عجاج ومن يترنح بهما فليس بحكيم . الكسلان يخفي يده في الصحفة و يشق عليه ان يردها الى فمه . اربعة هي الاصغر في الارض ولكنها حكيمة جداً النمل طائفة غير قوية ولكنه يعد طعامه في الصيف الوبار طائفة ضعيفة ولكنها تضع بيوتها في الصخر . الجراد ليس له ملك ولكنه يخرج كله فرقاً فرقاً . العنكبوت تمسك بيدها وهي في قصور الملوك »

هذا قليل من كثير من الامثال التي كل مثل منها يفوق اخاه جودة وبتمم معناه ، فهي لا تبث روح الجد والاقدام فحسب بل تعلمنا درساً نأخذه عن صغار الحشرات ، فهو يطلب ان نذهب الى النملة ونتعلم منها الدأب على العمل ، والى اصغر الهوام ونأخذعنها الحكمة بالملاحظة وتتبع خطواتها ، فامثال هذه اهميتها لجديرة بان تنقش في صم القلوب تهدي صراط الحق وسبل العيش الهنيء .

وفي الجامعة تظهر حقيقة سليمان تلك الشخصية الممتازة التي تدلنا على عقل راجح وتفكير عميق تجعله في مصاف الفلاسفة العظماء الخالدين المتربعين على عرش السيادة بين مصاف آلهة العلم

سليمان الحكيم

في

جامعته

عرفنا سليمان فيما مضى شاعرا متشبباً وواعظاً ، والان نبسطه لدى جمهرة القراء حكيماً مجربا خبر الحياة وبلاها وانغمس في جميع ملاذها وعاد منها ولديه نظريات مكتسبة مبنية على اختبارات كثيرة ، ومن قراءة سفر الجامعة نراه رجلا جليل القدر عظيم الشان في شيء من الضعف البشري الذي يستولي على الانسان القاصر عن ادراك سر الوجود – وكل انسان قاصر – فهو من القائلين بازلية الدهر وقدم الارض وانه تعاقب على هذه الكرة ادوار كثيرة وليس فيها شيء جديد « ما كان فهو ما يكون والذي صنع فهو الذي يصنع فليس تحت الشمس جديد وان وجد شيء يقال عنه ، انظر هـذا جديد فهو منذ زمان كان في الدهور التي كانت قبلنا ، ليس ذكر للاولين ، والاخرون ايضاً الذي سيكونون لا يكون لهم ذكر عند الذين يكونون بعدهم »

وكاني به يعتقد ان كل ما عمل وما سيعمل تحت الشمس من اختراعات وغيرها هي قديمة وفكرة الانسان واحدة يطرأ عليها ما يحجبها عن الاقدام فتلبث حيناً من الدهر مكبوتة الى ان يبعث بها الجيل او البيئة من مكمنها ، وهذا قول لا نقدر ان نبحثه فقد يكون صحيحاً وقد يكون بالعكس وغرضنا ان نظهر نظرية الرجل في الحياة

وسر الحياة اشغل فكر كثيرين من فلاسفة الهند والصين واليونان

والرومان حتى عصرنا الحاضر ، وكل له رأي قد يكون على شيء من الاحترام او لا ، فسليمان من هذه الناحية لا يجيء بنظريات مبنية على الظن فحسب ، بل يجيء بها بعد تجارب واختبارات جمّة فهو يقول انه وجه قلبه لمعرفة الحكمة ولمعرفة الحماقة والجهل ، فعرف ان هذا قبض الريح لان في كثرة الحكمة كثرة الغم والذي يزيد علما يزيد حزنا ، فهو لم يأت بشيء مبني على التخمين او الحدس كما قلنا بل على التجربة ، لانه يقول في الصحاح الثاني العدد الثالث « افتكرت في قلبي ان اعلل جسدي بالخمرة وقلبي يلهج بالحكمة وان آخذ بالحماقة حتى ارى ما هو الخير لبني البشر حتى يفعلوه تحت السموات مدة ايام حياتهم » ويقول انه بنى لنفسه بيوتاً وجنات وفراديس وغرس اشجاراً من كل انواع الثمر واقام برك مياه واقتنى عبيداً وجواري واتخذ لنفسه مغنين ومغنيات وتنعمات بني البشر سيدة وسيدات وفعل كل ما اشتهت عيناه ولم يمنع قلبه من كل فرح وبعد هذا كله التفت الى اعماله فاذا الكل باطل وقبض الريح ولا منفعة تحت الشمس فيظهر تشاؤمه من الحياة ويرى انها لا شيء ، فهو ينصح للانسان ان يأكل ويشرب ويري نفسه خيرا في تعبه وان يكون على شيء من المعرفة والحكمة في جميع اعماله وان يجعل لكل عمل من اعمال الحياة وقتاً ، ثم فكر بجميع الاعمال فرأى ان كل المظالم التي تجري تحت الشمس ، هي دموع المظلومين تتساقط ولا معزّ لهم فغبّط الاموات الذين قد ماتوا منذ زمان اكثر من الاحياء الذين هم عائشون بعد وخير من كليهما الذي لم يولد بعد ، الذي لم ير العمل الرديء ، ويزعم ان لا حياة للرجل الذي يجمع الذهب

ولا يسر بتعب يديه فهو موكل على ما ليس له فانه كما خرج من بطن امه عريانًا يرجع ذاهبا كما جاء ولا يأخذ شيئًا من تعبه

واننا نراه قد كره الحياة وما فيها لانه لم يقف على سرّ من اسرارها ولم يعرف الغاية التي من اجلها جاء الانسان الى هذه الدنيا فهو يراها دنيا متاعب وشقاء ولا راحة لانسان فيها ، وكأن سرّ الحياة الغامض قد ملك عليه لبه واصبح لا يلذ له الا الحزن والالم فهو يذهب كما ذهب غيره من بعض فلاسفة اليونان وبعض الابيقوريين الى ان اللذة في الالم فهو يقول الحزن خير من الضحك لان بكآبة الوجه يصلح القلب « قلب الحكماء في بيت النوح وقلب الجهال في بيت الفرح »

تلك هي نتيجة بحث الحكيم الذي يبحث كثيراً ويختبر ويجرّب ويرجع بعد حين من تجاربه كانه لم يعمل شيئًا فيحزن على تعبه ويرى بالحزن لذة لانه رجع بعد البحث بلا شيء

اما اعتقاده بما وراء القبر فيظهر لنا جليًا من قوله في الصحاح التاسع العدد الخامس « الاحياء يعلمون انهم سيموتون ، اما الموتى فلا يعلمون شيئًا وليس لهم اجر بعد ، لان ذكرهم نسي ومحبتهم وبغضتهم وحسدهم هلكت منذ زمان ولا نصيب لهم بعد الى الابد في كل عمل تحت الشمس » ويقول في العدد التاسع « التذّ عيشًا مع المرأة التي احببتها كل ايام حياة باطلك التي اعطاكها تحت الشمس كل ايام باطلك لان ذلك نصيبك في الحياة وفي تعبك الذي تعبته تحت الشمس وكل ما تجده يدك لتفعله فافعله بقوتك ، لانه ليس من عمل ولا اختراع ولا معرفة ولا حكمة في الهاوية التي انت ذاهب اليها »

اننا نرى من مجرى هذه الاقوال انه يعتقد الاَّ حياة بعد القبر للانسان فعليه أن يلذّ ويفرح بهذه الحياة ويري نفسه مسرات وافراحاً، فليس للانسان نصيب بالحياة الا بملذاته التي ياتيها وهو تحت الشمس، وكأن رهبة الموت قد تجلت لسليمان فاسف على الحياة التي يقضيها الانسان وليس لها غاية، فهل تذهب هي سدى ؟ وهل نصيب الذين يعلمون والذين لا يعلمون سواء ؟ وهل نصيب الصالح ونصيب الطالح واحد ؟ فعدل عما ارتأى وقال بالحياة الثانية والدينونة، ففي الصحاح الحادي عشر والعدد التاسع يقول « افرح ايها الشاب في حداثتك وليسرك قلبك في ايام شبابك، واسلك في طريق قلبك وبمرأى عينيك واعلم انه على هذه الامور كلها يأتي بك الله الى الدينونة » فمن هنا يتضح لنا ان سليمان يعتقد بالله وبالحياة الثانية وبالدينونة وبخلود النفس وقد عبر عنها بالروح في قوله في الصحاح الثاني عشر العدد السابع « فيرجع التراب الى الارض كما كان وترجع الروح الى الله الذي اعطاها » وما يذهب اليه سليمان في جامعته بعد ان بحث وفكَّر كثيرا ان الحياة تتلخَّص في امور هي : اللذة وطلب المعرفة والحكمة والابتعاد عن الشرور، وعدم الوقوف امام اللذّات مكتوف اليدين لان الانسان يجيء الى هذه الحياة مرة واحدة لا مرتين فهو يحثنا على طلب ملاذ الحياة والفرح بها والعمل بتؤدة والابتعاد عن الجهل الذي فيه قتل الروح، وعدم التعلق بحطام الدنيا تعلقاً كابياً، لانها من الامور الباطلة، بل علينا ان نعمل لنحيا ونعيش عاملين عملاً محبوباً حتى دنوّ الاجل، هذه هي الحياة وهذه فلسفتها، وجملة القول كله ان سليمان يطلب اتقاء الله وحفظ وصاياه ولا نعلم ما هي تلك الوصايا،

فهو بعد ان احب كثيرا وتغزل واري نفسه مسرات اتى في آخر ايامه يعظنا بتقوى الله وحفظ الوصايا ولا نعلم اي وصايا يريد ألا الاكثار من السراري والخطيات ؟ ام شرب الخمرة ، وهو ما ذهب اليه عمر الخيام الفارسي حيث يقول ان معنى الحياة هو شرب الخمرة في روضة دانية القطوف على نخذ قينة توقع اناشيد الحب على نقر عودها

اذن فسليمان عندي قد عرف الحياة وعرف ان يلتذ بها وان يقضي ايامه بفرح وسرور ، وما جاء به من عظات للمستقبل هي رد فعل لحياة الشباب في عهد التقدم بالسن

عظمة الله في التاريخ

الان : ارجع بالذاكرة الى العصور الاولى التاريخية وارى بعين الفكر الانسان الاول ، المتطور بحسب سنن الطبيعة ، يجلله الشعر ، يقبع ويصيء باصوات يتفاهم بها مع اخوانه الانسانيين في احوال الجوع والعطش والبرد والحر والخوف اراه يتسلق الاشجار لينال منها الاثمار ويأوي الى محاجىء الصخور والاجام المجوفة ليدرأ عنه عاديات الطبيعة من امطار وبرد او صد هجمات الكواسر في آن منامه واستكانته ، ثم اراه وقد اخذ بالرقي شيئاً فشيئاً فاستعمل الحجر سلاحاً ثم استعان بالخشب ليقهر به عدوه ويقوى على اصطياد الحيوان فيقتات من لحمه ويكتسي بجلده

هوذا الانسان قد ارتقى فاطلق اسما على كل ما يحتاج اليه وشعر بحاجته الى التدفئة فعمد الى ايجاد النار فحدث ان احرقت بعض الصواعق شجرة او

اجمة برمتها فاحتفظ بها ودعاها النار المقدسة وقام على حراستها واضرامها كلما قاربت الاطفاء — ولا يزال اثر هذه العقيدة منتشراً في العالم المدعو بالوثني في الهند وبلاد فارس وافريقيا -- عرف منافع النار بالتدريج، كما عرف انسان التاريخ منافع الكهربائية فاوجد المثقب الناري وهو اقدم اختراعات الانسان وبالاتفاق او الاكتشاف عرف ان النار تقسي الصلصال فصار خزافاً وانها تذيب المعدنيات اي الاجسام المتطرقة فصار صانعاً للادوات

قلنا ان الانسان عرف النار وهي كما قال العالم «جولي» ان لها اليد الطولى في رقي البشرية، وفائدتها تنحصر في امور ثلاثة هي الموقدة والمذبح والكور، وصار ينظر الى الحياة نظرة اختبارية ولما كان يصعب عليه تعليل النواميس الطبيعية كالبرق والرعد والمطر والهواء ونمو النبات وكيفية وجود ذاته وتلك العوالم السابحة في الاجواء صوّر له عقله اختراع قوات دعاها آلهة وجعل لكل قوة من قوى الطبيعة الهاً نعته بصفات بشرية راى الشمس المنيرة الجميلة المدفئة فدعاها رباً وكان قد عبد النار وقال انها كالنور مظهر من مظاهر الآلهة وابصر النجوم ليلاً فجعلها مراكز الارباب، راى التمساح فخافه فعبده وهكذا الحية — والعبادة لا تنشأ الا عن خوف، عرف منافع البقر في الفلاحة فجعلها مساكن آلهة الارض منمية الزرع

وكان قد شعر بضرورة الاجتماع فالّف العائلة واحتفظ بالانثى، وقال ان الطبيعة تشبه الانسان فكما ان لكل قبيلة رئيساً كذلك يجب ان يكون لكل قوة من قوى الطبيعة رباً يعبد ورمز عنه بشيء من المظاهر المشاهدة فتعددت الآلهة وكثرت، واخذ يتدرج بالمعرفة رويداً رويداً فاوجد لبيئته

الهًا حافظًا قدّم له القرابين الدموية من بشرية وغيرها استرضاء فكانت القرابين والمذبح وجعل لذلك الاله مسكنًا فكانت المعابد وكانت على الغالب تقام في الامكنة المرتفعة، كما نشاهد ذلك عند الاغريق الذين جعلوا مسكن آلهتهم جبل اولمبس وطبقات الهواء فوق الارض

ترقّى العقل البشري ودرج على سنة النشوء والارتقاء ففتق له عقله صنع التماثيل رمز معبوداته فشيد الهياكل العظيمة وزانها بكل ما يلقي في القلب رهبة، وحصر حراستها وخدمتها باشخاص فكانت جماعة الكهان وتالفت الطبقات العليا والوسطى والدنيا، ولا يزال هذا التقسيم باقيا في الهند والصين حتى يومنا، طبقة الاشراف او المحاربين، البراهمة او الكهنة، الفلاحون والتجار، ثم الطبقة السفلى ويطلقون عليها اسم «سدرارز»

وبطول الزمن وكثرة الاختبارات والتقدم التدريجي بدل مجرى التفكير عند قسم من البشر فتحوّلت عبادة قوى الطبيعة الى ديانة يرأسها كائن عظيم وهو الذي اطلق عليه الهنود اسم براهما وله اتباع آلهة هم ادنى منه، وكالفرس وقد جعلوا مقدرات هذا الكون بيد الهين احدهما ارموزد اله الخير والاخر اهريمان اله الشر — واثر هذا في بعض العبادات الحاضرة كالله والشيطان مثلاً — وهكذا تعددت الاعتقادات فكان للمصريين الهة متعددة قسموها الى ثلاثات وكغيرهم من الامم البائدة، ورويداً رويدا تحولت آلهة البشر من الكثرة الى القلة فجاء العبرانيون وكان بهم بدء التوحيد فجعلوا الههم (يهوه) الهاً واحداً غيورا اقوى من آلهة الامم، يسر بالمحرقات والدماء والحروب والهدم فصوّر لهم قتل الامم المجاورين واحراق بيوتهم وتشتيتهم واغتصاب مقتنياتهم وهو

يساعدهم لانهم شعبه الخاص المختار من دون الامم ، وصوروه بعين الفكر انساناً وقالوا خلق الله الانسان على صورته ومثاله ، وبعده جاءت المسيحية فجعلته الهاً عاماً وديعاً محباً غيوراً وقس على ذلك

فانت ترى كيف ان فكرة الاله مشت في التاريخ متدرجة بتدرج البشرية من حالة الى اخرى ، على ان ما يدل عليه العقل من وحدة الكائنات وارتباطها مع بعضها بنظام تجري على سنن واحدة يثبت افتراض قوة عظيمة تدبر هذه العوالم بارادة رشيدة هي بيننا نشاهدها ولا ندركها ، وانما ندرك مظاهرها وكفى بالحركة الدائمة التي نشاهد اثرها في ارضنا هذه اقرارا بتلك القوة السرمدية ، ولا اجادل بما نسميها او تطلق عليها ايها القارئ فلك الخيار بتسميتها ما شئت ولكن حاذر ان تنكرها لانك لن تقوى على ذلك والاقرار بها مبدأ لحل كثير من الفرضيات العلمية

ابن الفارض

في شعره

أرأيت في حياتك جنة وارفة الظلال تنساب فيها جداول رقراقة يدغدغ كلأها ذلك الماء العذب ، من فوقه بلابل تصدح على انغام حفيف اوراق الشجر المترنح بذلك النسيم العليل المثلج الصدور والشارح الخواطر ، اوامضيت ليلة من ليالي الصيف في اعالي لبنان الاشم ونظرت الى تلك النجوم الضاربة بانوارها في عرض الافق الصافي الاديم من تحتها اشعة القمر الفضية تنير سبل الشعراء والغاوين او المنشدين على ايقاع تموجات ذلك الهواء الهادىء المطمئن ،

اغاني الحب والشوق والهيام ، او قل لي بربك اما سمعت قطّ مطربا يوقّع على عوده او قيثاره الحان هينمة النسيم الذائبة في ضرب الاوتار فشعرت بشيء من كهرباء السكر الطبيعي او الذهول يتمشي في صمّ لبّك ، فرحت تسبح في سماء الفكر صاعداً على اجنحة الخيال الى الملاء الاعلى الى عالم ما عرفته قبل ذاك ، فاذا كنت قد شاهدت كل ذلك واردت ان تعود بالذاكرة الى ما رايت او كنت ممن كتب لهم ان يكونوا في عداد المحبين المدنفين ، ولم تنظر قط مثل هذه المشاهد الخلابة الساحرة ، فادخل مجلس الامام العارف بالله الشيخ ابي حفص وهناك ترى ما يجلو الغمة ويزيل السويداء ، وكاني بك تريد ان تعرف من هو ذلك الرجل :

حياته ونشأته

هو الشيخ الشاعر، الطائر الذكر ابو القاسم عمر ابن ابي ربيعة ابي الحسن علي ابن المرشد بن علي الحموي السوري الاصل ، المصري المولد والدار والوفاة المعروف بابن الفارض وسبب تسمية ابيه بالفارض هو انه قدم من حماة على نهر العاصي الى مصر فقطنها ، وكان نثبت الفرائض للنساء على الرجال بين ايدي الحكام فلقب بالفارض وكانت ولادته في الرابع من ذي القعدة سنة ست وسبعين وخمس مئة هجرية الموافقه لسنة واحد وثمانين بعد المئة والالف مسيحية ، اخذ العلم عن ابيه ثم طلبه على الارجح في الازهر على جملة من علماء ذلك العصر وكان منذ نشأته وديعاً هادئ الطبع شغوفاً بالعلم محباً للعلماء

اخلاقه

كان معتدل القامة جميل الوجه مشربا بحمرة ظاهرة واذا استمع وتواجد

وغلب عليه الحال ازداد وجهه جمالا ونوراً ، وانحدر العرق من كل جسده فيسيل تحت قدميه ، وكان عليه نور وخفر وجلالة وهيبة ،ومن فهم معاني كلامه دلّه معرفته على علو منزلته . وكان اذا مشى في المدينة ازدحم الناس عليه يلتمسون منه البركة والدعاء ويقصدون تقبيل يديه فلا يمكّن احداً من ذلك بل يصافحه ، وكان اذا حضر في مجلس يظهر على ذلك المجلس سكون وهيبة ووقار . قيل وكان جماعة من المشايخ الفقهاء والفقراء (الدراويش) واكابر الدولة من الامراء والوزراء ورؤساء الناس يحضرون مجلسه وهم في غاية ما يكون من الادب معه واتضاع له ، واذا خاطبوه فكأنهم يخاطبون ملكا عظيما وكان ينفق على من يرد عليه نفقة متسعة ويعطي من يده عطاء جزيلا ولم يكن يتسبب في تحصيل شيء من الدنيا ولا يقبل من احد شيئاً والدليل على ذلك ان السلطان محمداً الملك الكامل الايوبي انفذ اليه مرة الف دينار فردها اليه وسأله ان يجهز له ضريحاً عند قبر امه اي ام الملك المذكور بتربة الامام الشافعي فلم ينعم له بذلك ثم استاذنه ان يبني له مزاراً مختصاً به فلم ياذن له والسبب في ذلك هدية السلطان اليه كما سنوضح ذلك قريباً وقد كان رجلا صالحاً كثير الخير حسن الصحبة محمود العشرة

عصره

عاش ابن الفارض في اوائل العصر العباسي الرابع من عصر الادب في جملة ادباء وشعراء المولدين : وكان ذلك العصر عصر التنميق وزخرف الشعر وتوشيته بانواع البديع والاستعارة والطباق ومراعاة النظير والتلميح والغلوّ في التورية والجناس وهو العصر الذي انحطت فيه الآداب ومات الابتكار وخيم

الجمود الفكري على جملة المتأدبين الا فئة كانت تحكم رصف المعنى الدقيق باللفظ الرشيق غير ان الكثيرين كانوا يفسدون بهجة المعاني بتوخي التجنيس وقد غلب السجع حتى على رسائل الشوق فيما بينهم فكانوا يتعمدون وضع الكلمة سواء ادّت المعنى المراد او لم تؤدهوما حاجتهم اليها الا المحافظة على السجعة واطالة الفقار ولا سيما الاخيرة منها ، وقد مال اكثر الشعراء الى انتحال الكتابة في الدواوين صناعة واستعملوا الشعر في تملق الملوك والرؤساء وفي اظهار التفصح والتسلية . فهجر قوله في الاغراض الهامّة وعدل به الى اغراض غير طبيعية اما مستحسنة في الجملة كمدح النبي والشكوى اليه او مدح بعض الاولياء واللهج باحوال التصوف والزهادة ونحو ذلك ، ومع هذ الانحطاط كان بينهم من لا ينحطون عن منزلة من تقدمهم من افاضل الشعراء كالطغرائي وابن الفارض الذي نحن بصدده والبهاء زهير وصفي الدين الحلي وغيرهم حفظوا للآداب رونقها وكرامتها الموفورة وترفعوا عن مجاراة جيلهم في ما يذهب اليه في الكثير مما نظموا او كتبوا ولولاهم لعدّ ذلك العصر عصر الخمول والكسل .

اما شعره فموصوف بدقة المعاني ورقة العبارات وقد شاع في الاقطار بين الخاصه والعامة ، فلم يبقَ منشد في وجده ولا عاشق في ذهوله الا هام في بواديه وترنم بقصائده ، فانه يدخل القلب فيجلو عنه سويداءه ويروي في هجير الغرام حرّها وصداها ومن قوله :

زدني بفرط الحب فيك تحيرا ... وارحم حشى بلظى هواك تسعرا
واذا سألتك أن اراك حقيقة ... فاسمح ولا تجعل جوابي لن ترى
يا قلب انت وعدتني في حبّهم ... صبرا فحاذر ان تضيق وتضجرا

ان الغرام هو الحياة فمت به ··· صبا فحقك ان تموت وتعذرا
قل للذين تقدموا قبلي ومن ··· بعدي ومن اضحى لاشجاني يرى
عني خذوا وبي اقتدوا ولي اسمعوا ··· وتحدثوا بصبابتي بين الورى

. . . . . .

لو كان كل الحسن يكمل صورة ··· ورآه كان مهللا ومكبرا

الا انظر الى هذه الابيات كيف يذوب بها نفسه رقة وصبابة وحبا وتدلها

ومن غرامه في الشعر كان يقول عملت في النوم بيتين هما :

وحياة اشواقي اليك ··· م وتربة الصبر الجميل
ما استحسنت عيني سواك ··· ولا صبوت الى خليل

ومما يحكى ان السلطان محمداً الملك الكامل الايوبي كان يحب اهل العلم ويحاضرهم في مجلس مختص بهم وكان يميل الى فن الادب فتذاكروا يوماً في اصعب القوافي ، فقال السلطان من اصعبها الياء الساكنة ، فمن كان يحفظ شيئاً منها فليذكرها ، فتذاكروا في ذلك فلم يتجاوز واحد منهم عشرة ابيات فقال السلطان انا احفظ منها خمسين بيتاً قصيدة واحدة وذكرها فاستحسن الجماعة ذلك ، فقال القاضي شرف الدين كاتب سره انا احفظ منها مئة وخمسين بيتاً قصيدة واحدة ، فقال السلطان ياشرف الدين : جمعت في خزائني اكثر دواوين الشعراء في الجاهلية والاسلام وانا احب هذه القافيه فلم اجد فيها اكثر مما ذكرته لكم فانشدني الابيات التي ذكرت . فانشده الكاتب القصيدة ومطلعها مع بضعة ابيات منها :

سائق الاظعان يطوي البيد طي ··· منعما عرّج على كثبان طي

وبذات الشيخ عني ان مرر ت بحيٍّ من عريب الجزع حي
وتلطف واجر ذكري عندهم علّهم ان ينظروا عطفاً الي
قل تركت الصب فيكم شبحاً ما له مما براه الشوق فيّ

***

يا اهيل الودّ انى تنكرو ني كهلا بعد عرفاني فتي
وهوى الغادة عمري عادة يجلب الشيب الى الشاب الاحي
آه واشوقي لضاحي وجهها وظما قلبي لذيّاك اللمي
انحلت جسمي نحولا خصرها منه حال فهو ابهى حلتي
ان تثنت فقضيب في نقاً مثمر بدر دجى فرع ظمي
في هواكم رمضان عمره ينقضي ما بين احياء وطي

قال شارح ديوانه الشيخ المتصوف عبد الغني النابلسي رحمه الله، انه اراد بالسائق، الله وبالظعن الناس وعلى هذا شرح سائر الابيات

فقال السلطان لمن هذه القصيدة فاني لم اسمع بمثلها وهذا نفس محبّ فاجاب هي من نظم شرف الدين عمر ابن الفارض قال وفي اي مكان مقامه . اجاب، كان مجاوراً بالحجاز وفي هذا الزمان حضر القاهرة وهو مقيم ببيت الخطابة في الجامع الازهر، فقال السلطان يا شرف الدين خذ منا الف دينار وتوجه اليه وقل عنا، ان ولدك محمداً يسلم عليك و يسألك ان تقبل هذه منه برسم الفقراء الواردين عليك فاذا قبلها فاسأله الحضور لناخذ حظنا من بركته فقال :مولانا السلطان يعفيني من ذلك فان ابن الفارض لا يأخذ الذهب ولا اقدر بعدذلك ان ادخل عليه حياء منه، فقال لا بد من ذلك فامتثل واخذ الذهب وقصد

مكان الشيخ فوجده واقفاً على الباب ينتظره فابتدأ بالكلام وقال يا شرف الدين ما لك ولذكري في مجلس السلطان، ردّ الذهب اليه ولا ترجع فتجيئني الى سنة. فرجع واخبر السلطان وقال: وددت ان افارق الدنيا ولا افارق الشيخ عمر سنة فقال السلطان مثل هذا الشيخ يكون في زماني ولا ازوره لا بدّ لي من زيارته ورؤيته، فنزلا ليلا الى المدينة مستخفياً هو وفخر الدين عثمان الكاملي وجماعة من بطانته وبات في بيت المهمندار الذي تجاه الجامع ودخل اليه بعد العشاء فلما احسّ بهم الشيخ خرج من الباب الآخر وسافر الى ثغر الاسكندرية واقام في المنار اياماً ثم رجع الى الازهر وبلغ السلطان حضوره وانه متوعك المزاج فارسل الى السلطان يستأذنه ان يجهز له ضريحاً فلم يأذن له كما مرّ وبعد ايام نصل من ذلك التوعك وعوفي.

وما يتضح لنا من مجرى هذه الرواية ان ابن الفارض كان ذا مكانة رفيعة بين قومه ليس لزهده وتقواه فحسب فكم من زاهد تقي درج ذكره ولم يحفظ لنا الدهر بين طيات ايامه خبراً عنه، بل لادبه وشائق خياله وعذوبة قوله وانسجام الفاظه المنتخبة فاننا لا نقدر ان نمر بالحديث عنه دون ان نسمع شيئاً من تلك الانفاس الطيبة المضمخة بعبير الزهر قال

قلبي يحدثني بانك متلفي ... روحي فداك عرفت ام لم تعرف
لم اقض حق هواك ان كنت الذي ... لم اقض فيه اسى ومثلي من يفي

. . . . . .

لا تحسبوني في الهوى متصنعاً ... كلفي بكم خلق بغير تكلفي
اخفيت حبكم فاخفاني اسى ... حتى لعمري كدت عني اختفي

دع عنك تعنيفي وذق طعم الهوى　　فاذا عشقت فبعد ذلك عنفُ
ما للنوى ذنب ومن اهوى معي　　ان غاب عن انسان عيني فهو في

وقد اراد بقوله «في» بقافية البيت الاخير نوعا من البديع هو الاكتفاء اي في قلبي . ومن قوله :

لو رأيت الذي سباني فيه　　من جمال ولن تراه سباكا
ومتى لاحت لي اغتفرت سهادي　　ولعينيَّ قلت هذا بذاكا

قلنا ان الشعر ملك عليه عقله ولبّه حتى في منامه والدليل الثاني على ذلك قول حفيده : سمعت الشيخ يقول رأيت النبي في المنام فقال يا عمر ما سميت قصيدتك فقلت يا رسول الله سميتها لوائح الجنان وروائح الجنان فقال لا بل سمها نظم السلوك ، وقيل انه حضر في مجلس الشيخ رجل من اكابر زمانه واستأذنه شرح تلك القصيدة فقال له في كم مجلد تشرحها فقال في مجلدين ، والقصيدة تزيد على الخمسمئة بيت ولا ندري ما يريد ان يقول لنا في شرح كل بيت منها في مجلدين . وقيل انه كان يمرّ على الشيخ عشرة ايام متواصلة لا يأكل ولا يشرب ولا يتكلم ولا يتحرك فهو كما قيل

ترى المحبين صرعى في ديارهم　　كفتية الكهف لا يدرون كم لبثوا
والله لو حلف العشاق انهم　　صرعى من الحب او موتى لما حنثوا

ثم يستفيق وينبعث من غيبته ويكون اول كلامه من قصيدة نظم السلوك وهي التائية الكبرى ومطلعها :

سقتني حميّا الحبّ راحة مقلتي　　وكأس محيا من عن الحسن جلّت

وختامها :

ومن فضل من اسأرت شرّ معاصري ومن كان قبلي فالفضائل فضلتي

وقد شرحها الشيخ النابلسي شرحا صوفياً ولم يتعرض لها الشيخ حسن البوريني بل اشار الى غريب كلماتها فقط . وكان الشيخ ابن الفارض قد جاور مكة المكرمة زماناً وكان يسيح في اوديتها وجبالها ويستأنس فيها بالوحوش ليلا ونهاراً والى هذا اشار في القصيدة التائية الصغيرة اللطيفة :

وحببني حبيك وصل معاشري وحببني ماعشت قطع عشيرتي

وابعدني عن اربعي بعد اربع شبابي وعقلي وارتياحي وصحتي

فلي بعد اوطاني سكون الى الفلا وبالوحش انسي اذ عن الانس وحشتي

وهو من هذا القبيل كالشنفرى الذي آثر سكنى الغاب على معاشرة الانس حيث يقول : « اي الشنفرى »

ولي دونكم اهلون سيد عملّس وارقط زهلول وعرفاء جيال

وديوانه كله من الشعر الحسن الجيد الا بضعة ابيات ظهر عليها الاجهاد لطول القصيدة وهي لا تنفي شاعريته وطول باعه في القريض ، وقد اشتهر شهرة واسعة حتى كان مرمى انظار كبار العلماء ولا سيما المتصوفة منهم لان الشيخ كان على طريقتهم ، وهي العكوف على العبادة والانقطاع الى الله تعالى والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيها من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة ، ولهم اصطلاحات في الفاظ تدور بين اهل الطريقة يدلون بها على ما يريدونه من اساليب المجاهدة ومحاسبة النفس وذكر الله . ولهذا السبب عينه لم يقبل عطية السلطان كما راينا ، وقد اختلف علماء الاسلام في

اصل كلمة التصوف او الصوفية فقال جماعة باشتقاقها من الصفاء او الصفة وقال اخرون غير ذلك ويرى ابن خلدون ان اشتقاقهامن الصوف اقرب الى الصواب لاختصاص اصحاب التصوف بلبس الصوف، وما ذهب اليه العلامة المرحوم جرجي زيدان انها مأخوذة من لفظة يونانية الاصل (Sofia) ومعناها الحكمة فيكون الصوفية قد لقبوا به نسبة الى الحكمة لانهم كانو يبحثون في ما يكتبونه بحثاً فلسفياً وقد دوّن حجة الاسلام الغزالي في كتاب الاحياء احكام الورع والاقتداء ثم بين آداب القوم وسننهم وشرح اصطلاحاتهم في عباراتهم وصار علما مدونا بعد ان كانت الطريقة عبادة، وقد ذكر له بعض شيوخ الطريقة المومى اليها معجزات وكرامات متعددة لا يسعنا تعدادها في مثل هذا المقام

قال كليمان هارت في كتابه «آداب العربية» :

«ان ديوان ابن الفارض كبير شعراء المتصوفة العرب هو انموذج اعلى ينشده الصوفيون في تواجدهم الروحي، وان الفلاسفة القائلين ان الاله الواحد انما هو كل الكائنات يترنمون بحب الالوهيه ورغبتهم بالاتحاد مع الكائن الكلي تدفع بهم الى الاخذ عن البشرية تلك الصور الملتهبة فلا يحجمون عن شرب الخمرة اذ بها يرتفعون بالتصور الى الدنو من الحضرة الالهية ولهذا نرى ابن الفارض يغرق في وصف الخمرة» .

على ان العلماء المتصوفة يذهبون بذكر الخمرة التي يتغزلون بها ويشيدون بذكرها مذاهب اخر منها ان كثرة التواجد وذكر الله يسكرهما بخمرة روحية معنوية ويقربهما من العرش وعلى ذلك قال ابن الفارض :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة   سكرنا بها من قبل ان يخلق الكرم

وقال البارون كارا ده فو في كتابه «مفكرو الاسلام» لم يعرف الغرب ابن الفارض الا في القرن السابع عشر وذلك ان فابريكيس روى عنه اربعة عشر بيتاً في الغزل غير ان دي سامي وكر انجار دي لا كرانج قد بحثا الرجل واظهرا خلقه التصوفي وفي السنة ١٨٧٤ ترجم فاليركا قصائده الصغيرة الى الايطالية وقابلها على المؤلف باترارك وترجم ايضا الى الايطالية المستشرق دي ماتو التائية الكبرى وهي نظم السلوك

وقال ان اولى طبعات ديوان ابن الفارض الذي جمعه حفيده «ابن بنته» علي كان في حلب السنة ١٢٥٧ «اه»

وممن عني بشرح الديوان العالم العلامة الصوفي الشيخ عبد الغني النابلسي على طريقة المتصوفة بمجلدين ثم الشيخ حسن البوريني ولم يتعرض هذا لتاويل معنى الايات على الطريقة الصوفية، وشرحه غيرهما من العلماء وممن اجاد في شرح الديوان موفقاً بين ما ذهب اليه الشيخان النابلسي والبوريني الكونت الشيخ رشيد غالب الدحداح اللبناني وطبعه في مرسيليا السنة ١٨٥٥ ، ولما اشتهر امر هذا الديوان اعاد طبعه السيد محمد السيوطي في المطبعة الخيرية في مصر السنة ١٢٥٧ هـ . الموافقه لسنة ١٨٩٣ م . وقد سكت عن اسم الكونت الشيخ الدحداح اللبناني وقال هكذا «الشيخ رشيد غالب المجتبي» ولا نعلم من اين جاء بهذه التسمية للشيخ المذكور .

وممن شرحه ايضاً معتمداً على شرح الشيخ حسن البوريني الاديب الفاضل امين ابن الخوري يوسف ابي صالح صاحب مكتبة ومطبعة الآداب في بيروت السنة ١٨٩٤ م .

من هذا يتبين لنا ان الشراح لم يعتنوا به ولم يشتهر امره الا لان ابن الفارض يذوب رقة وعاطفة وشعوراً ، وليس شعره كشعر البداوة بل وسط بين المتقدمين والمتاخرين يغلب عليه طابع المولدين وما ذلك الا لتشربه روح العصر الذي غلبت فيه انواع التشابيه والاستعارات والكنايات والبديع الى غير ذلك والانسان ابن البيئة والوسط الذي يعيش فيه ، فهو في طليعة الغزلين من الشعراء الذين اجادوا واحسنوا السبك في المعنى الرقيق وهو حامل علمهم ورافع لوائهم وعلى ما استن مشى من جاء بعده وجملة القول ان ابن الفارض علم من اعلام القرن الثالث عشر قد اتى لنا بشيء من ادب ذلك العصر وتفكيره ومن اراد زيادة ايضاح فما عليه الا الرجوع الى مطالعة شعره حيث يتجلى له الحب الصحيح والغزل المهذب ، وقد توفي رحمه الله يوم الثلاثاء الثاني من جمادي الاولى السنة الاثنتين والثلاثين بعد الست مئة ، ودفن من الغد بالقرافة بسفح المقطم تحت المسجد المعروف بالعارض فقال ابن بنته الشيخ علي :

جز بالقرافة تحت ذيل العارض — وقل السلام عليك يا ابن الفارض
ابرزت في نظم السلوك عجائباً — وكشفت عن سر مصون غامض
وشربت من بحر المحبة والولا — فرويت من بحر محيط فائض

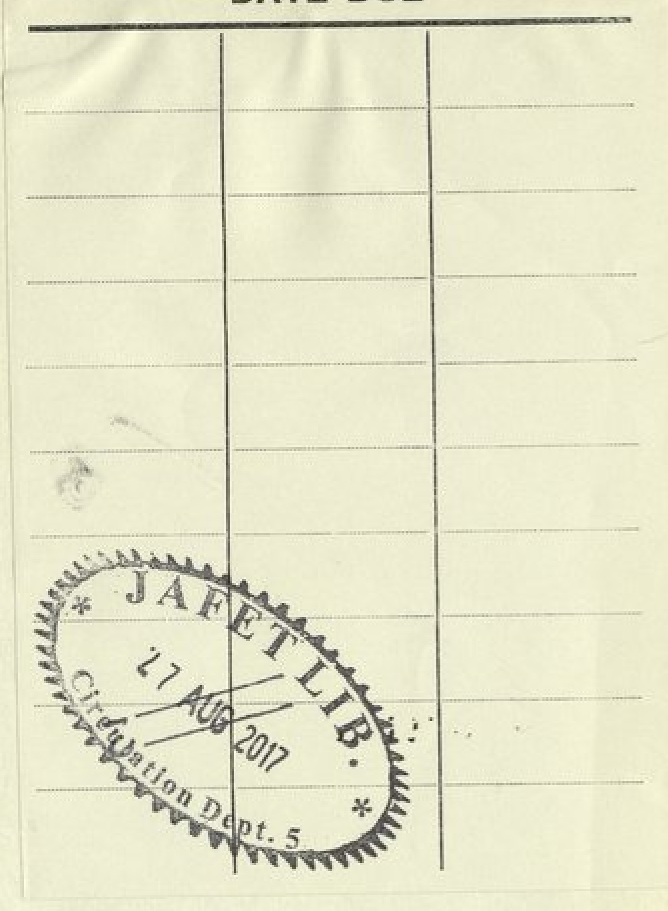
تمّ

فهرس

اصلاح خطآء

صفحة	سطر	خطآء	صواب
١٠	١٤	عن الاقدمين	عند الاقدمين
١٢	٨	تغدوا	تغدو
١٣	٧	على جهابذة	على درر جهابذة

ووقع بعض اغلاط مطبعية قليلة لا تخفى على الاديب


DATE DUE
JAFET LIB.
17 AUG 2017
Circulation Dept. 5

